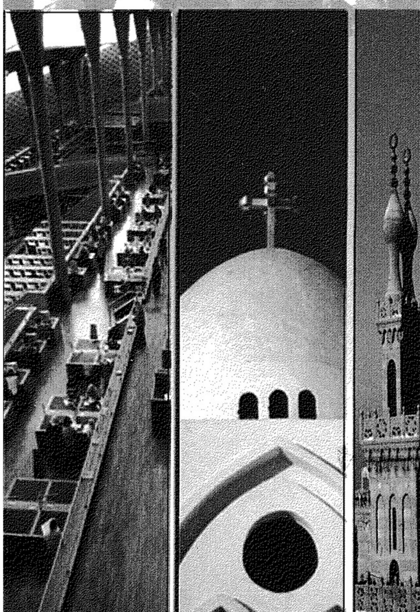
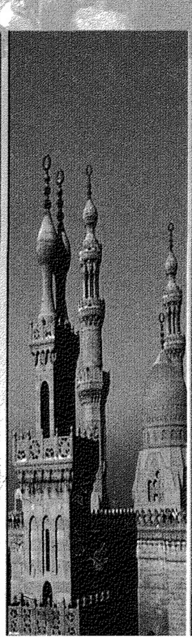
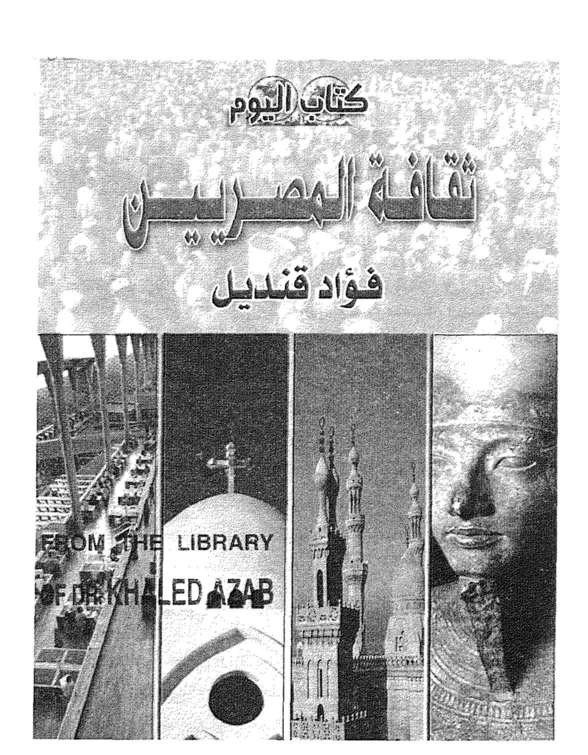
كتاب اليوم

ثقافة المصريين

فؤاد قنديل

رئيس مجلس الإدارة

محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نـــوال مـصـطـفـى



ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٤٨٦
سبتمبر ٢٠٠٦

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم
٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٥٨٠٦٢٣٥
تليفاكس: ٥٧٨٤٤٤٤

الإخراج الفنى :
عبد القادر على

تصميم الغلاف :
نادر مصطفى

تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبة المدارس
والجامعات المصرية

أسعار البيع
خارج مصر

سوريا ١٠٠ ل.س - لبنان ٤٠٠٠ ل.ل - الأردن ١,٥ دينار. الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريال - البحرين ١ دينار. قطر ١٠ ريال - الإمارات ١٠ درهم - سلطنة عمان ١ ريال. تونس ٢ دينار - المغرب ٣٠ درهم - اليمن ٣٠ ريال فلسطين ٢ دولار - لندن ٢ جك - أمريكا ٥ دولار. أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيها
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

قبل أن تقـــــرأ..

بقلم: نوال مصطفى

احتار الناس فى مصر فى تعريف دقيق للثقافة.. ونتج عن هذا الخلط حالة من الارتباك فى مفهوم الثقافة.. فما هى الثقافة؟.. الثقافة فى الأساس سلوك إنسانى أى أسلوب تعامل الإنسان مع الآخرين فى عمله، مع كل الناس وفى كل تفاصيل حياته، فالثقافة شىء يدخل فى صميم سلوكياتنا، ووسط هذا الكم الهائل من الثقافات التى تتعدد من ثقافات شعبية وإسلامية وقبطية وثقافة الخرافات والشعوذة والدجل، والأصعب من هذا أن هذه الثقافات تتشعب فى داخلها إلى ثقافات عدة تتشكل وتتبلور لتخرج كل ثقافة منها بعيدة عن الأخرى، فالواضح أن هذه الثقافات غير قابلة للانصهار بل تمثل ثقافات مختلفة متنافرة لا تشبه إحداها الأخرى. ومن ثم فليس لدينا ثقافة واحدة يمكن أن نطلق عليها ثقافة المصريين.

وفى كتاب «ثقافة المصريين» يحدثنا الكاتب الكبير فؤاد قنديل عن ثقافة هذا الشعب التى تعددت وتشعبت لدرجة أصبحنا فيها لانلمح أو نلاحظ لنا ثقافة محددة.

ويستعرض لنا كل سلبيات الشعب المصرى من الكذب للهروب

من العقاب أو من أجل الحصول على ربح أعلى أو ثواب أكبر، والإهمال الذى تفشى واستشرى فى ا لمجتمع ونتجت عنه مصائب تجلت مظاهرها فى الشارع المصرى من تدهور الأخلاقيات وتدنيها وسيادة قانون العشوائية والجهل.

ومن أهم ما تحدث عنه فؤاد قنديل في كتابه هو «وهم التدين» ففئات عديدة من الشعب المصرى تعيش حالة من الوهم اسمه «التدين» والبعض يعتقد انه متدين وملتزم لمجرد انه يؤدى الفروض الأساسية من صلاة أو صوم ولكن فى الحقيقة هؤلاء بعيدون عن الدين وجوهره وروحه العطرة فكل ما لديهم هو المظاهر فقط، فقد تجد شخصا ملتحيا وتبدو عليه إمارات التدين ولكنه يغش ويسرق.

كذلك تحدث الكاتب عن الإتقان، هذه القيمة الغائبة عن مجتمعنا فمصيبتنا فى مصر أننا لانضع قيمة الإتقان كمرادف لراحة الضمير وإرضاء الله فنهرب من مرؤوسينا ونعمل بأقل قدر وجهد ممكن، وأنا شخصيا أعتقد اننا لو اتبعنا جوهر الدين وتعاليمه فى اتقان العمل لتمكنا من حل ٥٠٪ على الأقل من مشاكل مصر، فجوهر الدين هو الضمير والوازع الداخلى لفعل الصواب والخير مرضاة لله وهنا يحضرنى الحديث الشريف «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لذا أقدم لكم هذا الكتاب الذى يلمس وترا حساسا لدينا ويغوص داخل المجتمع المصرى ليضع يده على أهم سلبياته، وقد تجد نفسك وانت تقرأه تضحك إلى حد البكاء وقد تبكى إلى حافة الجنون.. فهذا هو حالنا وهذه هى ثقافتنا التى يحاول الكاتب أن يبحث عنها.. ثقافة المصريين.

نوال مصطفى

سبتمبر ٢٠٠٦

إهـــــداء

من أرض النيل
إلى شجرات النخيل
فى لبنان
قصصت سعفك المتوج بالخضرة والكبريا
وأطلقته على جموع الفئران القميئة
الزاحفة نحوك.. ونحونا. تتأبط مدافع الغدر والظلام
فيا شجرات النخيل الملوكى
لا انحنيت للعواصف العاديات السداسية
ولا استطاعت أسراب السوس أن تنخر جذوعك السامقة
ولأننى أنتمى إليك يا قرى الكرامة
وأنتمى لكحل الليل الساهر فى عيون أسودك، وأنتمى لدمائهم العطرة، وأنتمى للتراب الذى داست عليه أقدامهم الطاهرة
فلتسمحى.. لسطورى العابرات كنسمة باردة خجلى تقعى فى قاع سفوحك أن تحيى رجالك ونساءك وأطفالك، فقد رسموا على خدك الجميل شامة، وزرعوا فى قحط العروبة وردة.

ف.و

مقـــدمة

ذكرت غير مرة أن"الثقافة روح المجتمع"، وهى ليست عبارة إنشائية وإنما خبرية تخلو من أى أثر للبلاغة، وأى درجة من المبالغة لصالح الثقافة.. أقول هذا لأن كثيرًا من أبناء الشعب المصرى يستشعر الغموض إزاء كلمة"الثقافة"ويترتب على ذلك أن يتخلى عن مطاردة معانيها وإيثار تجاهلها وعدم تبديد الجهد لمعرفة دلالتها.

صحيح أن بعض الجماهير تحب الآداب والفنون وتحترم الأديان وتحرص على العادات والتقاليد وتمارس بعض الهوايات - ولو على استحياء - وتزور الآثار وتقبل على المرح كما تقع فريسة للأحزان طويلة الأمد، وصحيح أن الشباب يحبون الرقص والغناء ويقضون الساعات على المقاهى ويثرثرون كثيرًا جدًا، ويكذبون ويتفاخرون بالأوهام ويتعاركون لأوهن الأسباب ثم يقررون الذهاب إلى الصلاة، كل ذلك وغيره يحدث ولا يدرك الكثيرون أنه جزء من ثقافة الشعب.

والثقافة ببساطة وبالمعنى الشعبى هى سلوك الناس، وتتجاوز ذلك أيضًا لتصبح ما وراء هذا السلوك ذاته، إنها تلك

السراديب والأعماق والأفكار المعتقة والعوالم المركبة التى تعد الحضانة التى تتشكل فيها منظومة السلوك وتصدر عنها.

ومن ثم يذهب العلماء إلى أن ثقافة الشعب هى المقدمة الأولى والحتمية لدراسة سلوكياته وفكره وطموحاته وأفكاره عن الحاضر والمستقبل، وبالتالى توقع تصرفاته إزاء كل قرار أو إجراء أو أى خطوة جديدة تتخذها قوة ما فى اتجاهه أو بإزائه، وهذا ما يفعله الأمريكيون والإسرائيليون مع الشعب العربى عامة والمصريين خاصة.

يستطيع الدارس أن يتعرف على ثقافة شعب من الشعوب عبر رصده للشوارع والمقاهى والعمارة والأسواق وحركة التنقل والمرور وغيرها من المسارح الحياتية التى تكشف عن سلوكيات وثقافات ومفاهيم أخلاقية وقيم إنسانية.

ولعل بيجن كان متسقًا مع وعيه التاريخى عندما قال للرئيس السادات بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد "آن الآوان كى نوثق العلاقات فيما بيننا" فقال السادات "طبعا.. سنتعاون فى مجالات اقتصادية وسياسية وعسكرية" فأسرع بيجن يقول "سيدى الرئيس.. الأهم المجالات الثقافية".

لقد فرضت أحوال مصر المعاصرة، وتعرض ذلك البلد العريق لعملية تواطؤ قذرة من التاريخ وقوى عديدة داخلية وخارجية دفعته لاجتياز نفق من المعاناة والاضطراب والرؤى الغائمة، وعلى صاحب الكتاب وغيره أن يتأملوا ثقافة الشعب، لأنها المرايا الحقيقية التى تتألق على صفحتها كل الأعماق بما فيها من أحجار وأصداف، ومن ذهب ونحاس وأسماك وثعابين، ولأن النظر إلى ثقافة الشعب بتمعن وتحديق وتأمل هو الكفيل بتحديد شكل الخطوات المقبلة، خاصة أننا نتلهف بشغف أن يأتى المستقبل مشرقًا على غير ما جاء الماضى والحاضر.

لقد انهالت على الإنسان المصرى فى حقب كثيرة من تاريخه

الضربات الثقيلة والاختبارات الصعبة، ومر بفترات عصيبة، وعصفت به رياح التغيير بلا رحمة، وتهددت سفينته عشرات بل مئات المرات وتمزقت أشرعته، وذاق شتى ألوان العذاب والقهر مما أثر على منظومته الثقافية التى راكمت فى روحه أكداس الخوف والخضوع والقلق وأحيانًا الأنانية وإن لم تتأثر موروثاته القيمة كالتدين والصبر والإيمان والتكافل والرضا، وتجلت فى سلوكياته الرحمة والنخوة والكرم والتضحية.

لكنه وحتى الآن - والآن على وجه الخصوص - لا يزال فى حالة مخاض واضطراب لم تسمح له أن يجد طريقه الصحيح، وإن المخاض فى أعمار الشعوب أحيانًا ليطول ونحن فيه على مدى خمسين عامًا ولا نزال.. لكن التحديات كثيرة ولم نقبض بعد على منظومة منسجمة ومتماسكة من الرؤى الحياتية والعملية التى تمثل طرقًا معبدة وآمنة تمضى عليها قطارات التنمية بانطلاق وثقة، ولعل الأسباب تكاد تكون للجميع معلومة ومفهومة، تتقدمها فى نظرى على الأقل :

١- غياب فن وعلم الإدارة.
٢- مشكلة التربية والتعليم.
٣- الضمير الغائب.
٤- القاهرة كعاصمة وقنبلة.
٥- تراجع العدالة بكل صنوفها.
٦- تردى ثقافة الشعب.

ولا بد أن هناك أسبابًا أخرى كثيرة، لكنى أزعم أنها تنتمى لما ذكرت على نحو أو آخر ولأن لكل مشكلة أهلا ومتخصصين، فقد تصورت أنى أمتلك رؤية ما، تشخص أمراض الثقافة فى صورتها الشعبية العامة والمتخصصة، أى فيما يخص سلوكيات الجماهير وما يعنى منتجى الثقافة.

وأتمنى أن يوفق الكتاب فى طرح القضية ولو بصورة أولية

تسمح لغيرى أن يعمقها ويضيف إليها لأنها فى زعمى من أهم القضايا المعاصرة، خاصة أنها تعد المصب لكل مثالب الحياة المصرية وكل متغيراتها على طول الزمان، لأن ما نراه الآن من سلوكيات هى بالقطع ثقافة الشعب فى مجمله.. هى خلاصة تجاربه التعسة كما أنها رد فعله أيضا على ما واجهه من ضغوط تاريخية عجز عن التصدى لها بالسلاح أو بالفكر.

لذلك أحسب أن هذا الكتاب الذى يحاول أن يقدم خريطة للساحة الشعبية التى ستجرى عليها ومعها مباريات التنمية، يتخذ أهميته من الإشارة إلى جوانب ربما غابت عن صانع القرار، تمثل أهمية بالغة للجميع، الحكام والمحكومين، الجماهير والنخبة، قادة الحاضر والمستقبل والشباب أيضا، وعلينا أن نطل فى مراياه الصادقة حتى نرى وجوهنا الحقيقية.

لقد نضج الجميع ولم يعد متاحًا لأحد أن يخدع أحداً.. الأوراق على المنضدة، وليس من أسرار فى ظنى تحتها والقادة لم يعودوا مُلاك الحقيقة المطلقة والشعب فى غيبوبة، المطلوب فقط الكثير من العلم والدراسة، وكبح المصالح الشخصية والعقد التاريخية.

ولا يزال هذا الشعب الطيب والمظلوم والصابر ينتظر على أحر من الجمر أنٍ نطالعه بإخلاص وشرف، وأن نضع بين يديه وبعونه مستقبلاً يليق به، ولو كمكافأة على صبره الأسطورى طوال آلاف السنين، ولكن كيف يتحقق هذا وصوت المثقفين غير مسموع، والساسة ورجال الأعمال فقط هم الذين يحكمون؟

وإذا لم تكن الثقافة الرفيعة والفكر الرصين والحر مشاركين فى وضع فلسفة وآليات القرار، فإن ظلال الشك تحوم حول المسيرة التى تهددها فى كل آن تجارب الصواب والخطأ، وعلى الله قصد السبيل.

ف.ق

معنـــى الثقافـــة

أحصى العلمـاء مـا يقـرب من ثلاثمـائة تعـريف لمصطلح الثقافة، لكن الأشهر هو تعريف تايلور الذى ورد فى كتـابه"الثـقـافـة البـدائيـة"الصـادر عـام ١٨٧١، إذ يقـول :

"الثـقـافـة أو الحـضـارة هـى ذلك الكل المركب الذى يتـضـمن المعـرفـة والمعـتـقـد والفن والأخـلاق والقـانون والعـادات، وأى قدرات أو مهارات يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا فى المجتمع"

ورغم أن العلماء على اختلاف توجهاتهم حاولوا التخلص من تعـريف تايلور والبـحث عن بديل أدق، إلا أنهم لم يتـمكنوا - على كـثـرة مـا نحـتـوه ودبجـوه - من نسخ تعـريف تايلور أو تهميشه، وبصرف النظر عن الخلافات العلمية التى أسستها وأفضت إليها المناهج العلمية المتعددة والمناظير المتباينة من فلسفية ونفسية واجتماعية وأنثروبولوجية ووظيفية وفوق العضوية فإن الإجماع يكاد يكون منعقدًا على أن المقصود بمصطلح"الثقافة"هو مجموعة المعارف والقيم التى تتجلى فى سلوك جماعة من الناس.

ولعل من المفيد قبل الاستطراد الإشارة إلى عدد من المفاهيم التى يكتنفها قدر غير قليل من الالتباس عند العامة

ويتعين التوقف عندها وفض الاشتباك بين بعضها البعض.

لدينا مفاهيم مثل.. الثقافة بالمعنى الجمعى، والثقافة بالمعنى التحصيلى، ثم المثقف ومنتج الثقافة.

ثقافة الجماعة :

سبقت الإشارة إليها فى تعريف تايلور، وهى السمات التى تميز جماعة من الناس، ومن المتعذر طبعًا خلعها على شعب كامل، خاصة فى العصر الحديث حيث تعقد النسيج الاجتماعى بشكل لا يسمح بتعميم صفة من الصفات، ويمكن مثلاً الإشارة إلى الثقافة البدوية أو القبلية مع الأخذ فى الاعتبار - حتى فى مثل هذه الحالات - أن المفهوم لا ينطبق على كل الماصدقات أو على كل الأفراد ولكنه ينطبق على الأغلبية.

وعندما نقول مثلاً ثقافة سائقى الميكروباص، فهناك بالقطع سمات عامة يمكن أن نطلقها على أغلبية أبناء هذه المهنة من حيث الميل للضجيج وتدنى مستوى الحوار واعتياد التدخين وتعاطى الحشيش وارتياد المقاهى والإقبال على المرح الصاخب، كما يتسم السائقون العاملون على الميكروباص بالنخوة والتعاون، ولا بد أن القارئ يستطيع تصور ثقافة فئة كالجزارين والمراكبية والصيادين من حيث العادات ولغة الخطاب وتأثير المهنة وطبيعة المعاملات، كما أن باستطاعته أن يتفهم وجود ثقافة للريفى تختلف عن ثقافة الحضرى، وثقافة سكان السواحل والموانئ تختلف عن ثقافة الصعيدى.

ومن المهم التأكيد على أن الحكم العام لا ينفى الفروق الفردية التى سببتها مؤثرات خارجية كالسفر أو التعليم، ولا يعتد العلم ولا المنطق أو الحد الأدنى من التفكير بتلك الأحكام الشعبية التى تعود المصريون إطلاقها على أبناء بعض المحافظات، مثل : المنوفى بخيل، والشرقاوى كريم، والدمياطى مادى.. الخ، حتى لو

صدق ذلك على بعض النماذج ووصم بعض السلوكيات، فهى لا تعدو أن تكون محاولة عشوائية لاختزال عالم فى كلمة، وأحسب أن هذا النهج سمة لافتة لدى كثير من المصريين الذين يتسرعون أولاً بالحكم على الأشخاص من المواقف الأولية ويحرصون برغم التجارب على الحكم الأول، فيقولون فلان كشرى.. فلان حشرى.. فلان غلاوى.. فلانة رغاية.. فلانة نكدية أو حسادة.. فلان نحس.. فلان حشاش.. فلانة"برّاوية".

ومن ثم فالتعميم على هذا النحو يتضمن الكثير من العشوائية والظلم أيضاً، فضلاً عن عدم اتساقه دائمًا مع الحقيقة، فليس كل الأشخاص أسرى هذه الأحكام فى كل لحظة.

وثقافة الجماعة حصيلة غير متعمدة للمعارف والقيم والعادات والسلوكيات فالفلاح الذى تعود الصبر لم يرد ذلك، وإنما بحكم العمل وغرس البذور ثم انتظار الثمر لشهور اقتضى أن يروض النفس على الصبر، كما أنه تعود الصبر لأنه تعرض لضغوط كثيرة وقهر ولم تتوفر له سبل وإمكانات المقاومة فاضطر لذلك مرغمًا، وحبه لحيوانه وتقديره البالغ ليس إلا نتيجة للعلاقة الدائمة والرؤية المتواصلة والمنفعة الأولى، فضلاً عن مودة الحيوان وسلوكه الأليف والمطيع، ومثل ذلك يُقال عن البدوى الذى يحب حيوانه لأنه الرفيق الأول والمعاون الوحيد، وبدلاً من صبر الفلاح نلحظ أن البدوى يتميز ببعض التوتر لأنه لا ينتظر ثمرًا وإن انتظر مطرًا، ولكنه قد يميل لنظم الشعر وتأمل السماء ونجومها وقراءة الأثر دفعًا للخوف ودرءًا للملل.

الثقافة والشخصية:

ونعنى هنا الثقافة بالمعنى التحصيلى، أى ذلك السعى المقصود من جانب المرء للنهل من الفنون والآداب والعلوم

المختلفة والاطلاع على الكتب والصحف والمجلات، والإقبال على الرحلات وممارسة الهوايات ورفع المهارات والحصول على كل ألوان الغذاء الثقافى من أجل تكوين شخصية عصرية قويةٍ ومؤثرة فى الآخرين.

وتعد "بندكت" رائدة الدراسات الخاصة بالثقافة والشخصية، حيث أولت اهتمامًا كبيرًا لتأثير الثقافة على الشخصية ودعت إلى أهمية الانتقاء التاريخى للعادات والقيم، وقالت فى كتابها "أنماط الثقافة" الصادر عام ١٩٣٤ إن الثقافة مثلها مثل الفرد، عبارة عن نسق متسق من الفكر والفعل، ومثلها إلى حد كبير ذهبت "مرجريت ميد"، وإن كان هذا الاتجاه يغلب عليه الرؤية السيكولوجية.

وما يعنينا هنا هو التأكيد على أن الثقافة أهم عناصر تشكيل الشخصية ويحرص على تحصيلها كل راغب فى أن يكون له حضور بارز ومشاركة فاعلة أو دور لافت، وأحسب أن بإمكاننا فى يسر أن نتعرف بين ممثلينا السينمائيين على من يتمتع بالشخصية وبالتالى الثقافة، فمن افتقد الثقافة افتقد كل شىء تقريبًا، أو على الأقل عوامل النجاح والتميز لأنها الجوهرة الرئيسية فى الكيان الإنسانى وفاقدها يصبح عاديًا وفردًا فى القطيع.

ولا أجد غضاضة فى أن أعترف هنا بأنى عالجت بعض حالات النزاع العائلى بين الأزواج والزوجات عن طريق الثقافة، فقد لاحظت أن معظم هذه الحالات يتجلى أساسًا فى الإهمال والإعراض، ومن ثم قمت بتوجيه المرأة للتحصيل الثقافى خاصة القراءة، وتدريجيًا حقق هذا الأسلوب أثره، لأن القراءة أثمرت نتيجتين أساسيتين، هما أن المرأة لم تعد تنتظر أن يسأل عنها زوجها فهى تسعى إلى عالم مثير وجميل، عالم الثقافة، وليست دائمًا فى انتظار عطايا الزوج

وأياديه أو كلماته الطيبة، فإذا كان مشغولاً بالمقهى فهى مشغولة بالقراءة، وإذا كان مهتمًا بالكرة فهى مهتمة بالاستماع إلى الموسيقى، ثانيًا أنها ساعدت نفسها فى إعادة صياغة شخصيتها، خاصة من الوجهة النفسية والفكرية بعد أن كان شاغلها طوال اليوم التفكير فى إرضاء الزوج، وأعتقد أن هذه مشكلة عميقة التأثير فى إحداث التصدع والشرخ فى الحياة الزوجية، لأن الزوجة المصرية فى أكثر الأحيان تنظر إلى الرجل بوصفه المعبود والحلم والأمل والملك، ومن ثم لا تفكير لديها إلا فيه ولا عمل لها إلا خدمته وبذل الجهد لتنظيف التراب من تحت قدميه، هذا فهم بشع ومسرف فى الغباء، وهذا الذى يؤكد أن العلاقة بينهما علاقة العبد والسيد، والزوجة ليست بحال هى العبد ولا السيد، والزوج كذلك، إنهما شريكان وصديقان وحبيبان وقرينان وزوجان على قدم المساواة تمامًا، وعلى كل طرف القيام بدوره خير قيام، وأى فهم غير هذا بأدنى نسبة يؤثر على التوازن والسلام والمحبة والاحترام.

وعلى المرأة أن تهتم بالمكونات الرئيسية لشخصيتها كالعلم والثقافة والخبرات والمعلومات وتدريب التفكير على النظر والتأمل والدراسة وتخفيف الهم المادى قدر الإمكان، بل ويجب أن تشعر بضرورة التفوق على الرجل فى كل ما هو معنوى اتساقًا مع طبيعتها الأولى التى تقوم على الحنان والرحمة والحب والكرم والتضحية.

وهنا نصل ولو متأخرين إلى دلالة لفظة"الثقافة"فى اللغة العربية، فهى اسم مشتق من الفعل"ثقف"وثقف كما هو معروف أى صقل وأحد، وعادة ما تأتى صفة لعملية صقل السيف واستخدمت بعد ذلك بقرون للحديث عن الشخصية، والسيف فى البداية يصنع على شكل شريحة حديدية خام لا تملك

مـقـومـات القـتل أو حـتى الإصـابة أو النفـاذ، ولا بد من"تثقيفها"أى صقلها وجعلها حادة وقاطعة، وكذلك الشخصية لابد لها من تثقيف حتى يشع النور بداخلها، فترى جيدًا وتعى ثم تشرق على من حولها بوهج المعرفة والرأى والإحساس، وبدونها فالشخصية كيان خام ومغلق وفارغ ولا يستطيع أن يدرك مـا حـوله ولا يكاد يملك القـدرة على التعـامل مع الكائنات، لأنه مشروع إنسان.. كيان فسيولوجى وبيولوجى فقط، ولا بد لذلك من الاعتراف بأن الفرق بين الإنسان الخام والمثقف كالفرق بين البدوى وساكن الحضر، أو بين الذى يعيش فى الغابة أو على جزيرة ومن يعيش فى العاصمة.. من يعيش فى مدغشقر ومن يعيش فى منهاتن أو باريس أو ملبورن أو ويلز.

المثقف:

يقصد به كل من حصل المعارف والعلوم والقيم وتجلى ذلك فى سلوكه كما أوضحنا فى الفقرة السابقة بحيث أصبح ابن عصره، يعى تمامًا ما يجرى فيه ويتأمل مستجداته ويتابع تطوراته ويرصد متغيراته ويدرس ويقارن، ثم إنه يحاول أن يكون له رأى فى كل ذلك، فهو ليس مجرد مثقف أو وعاء للثقافة وإنما هو صاحب رأى ينشره فيما حوله بحيث يؤثر فى مجتمعه الصغير وبيئته المحدودة.

المواطن المثقف يُعلِّق ويعترض، وينقد ويقترح، ويشارك ويحمس، ويدفع ويقدر الفكر الصائب ويشجع المجتهد، ويحمى الجمال والنظام ويؤرقه الظلم ويحلم بالعدل، ويسعى إلى ترسيخ القيم ونشرها ويفرح لازدهارها، كما يفرح لمشهد الطبيعة فى الربيع ويأسى لذبولها كما يأسى لازدياد الفقر وعشوائية العمارة وتدهور التعليم.

المثـقف هـو الذى لا يقـول أبدًا"وأنـا مـالى"أو يصـمت على ضيم، المثقف هو المسلح ضد التخلف واليأس والأنانية وضد العـدوانية والقـبح، لا يعـرف التفـاهة والدونيـة أو يفتـرض أن يكون كـذلك، المثـقف لا يعـرف الاسـتـسـلام أو الخنوع أو المؤامـرات، المثـقف هـو الجندى الأول فى صـروح الأمم، وهو الأحـرص عليهـا لا بالادعـاء والاصطناع ولكن بالوعى والفكر والطبـيعـة التى تربت على وهج نور الثـقافة والمعـرفـة والدين وحب القيم وحب الحياة فى أعلى صورها وأرفعها.

منتج الثقافة:

يقصد به طبعًا الدرجة الأعلى فى المنظومة الثقافية، إنه ليس مثقفاً صاحب رأى وله إسهام متواضع فى مجتمع صغير، ولكنه منتج لما يطالعه طلاب الثقافة، إنه معلم المثقفين ومبدع الأفكار وصانع الأحلام والعين التى ترصد المستقبل وتتمثله.

منتج الثـقـافـة هـو الموسـيقى والفنان التـشكيلى والشـاعـر والروائى والقـاص والناقـد والمفكر والمغنى والممـثل والمخـرج ومـهندس الديكور والاعـلامى والفـيلسـوف وكـاتب السـيناريو والخطيب والأديب، على أن يكون بالفعل منتجًا للثقافة، فليس كل ما يندرج تحت مسمى الشعر والموسيقى والسينما والمسرح مما يعد ثقافة، وأخطر الأمور إنتاج مادة تافهة تسمى"فيلم"أو سفاهة وترخص يسمى"أغنية".

لقد قيل قديمًا، حتى أننى لا أذكر صاحب القول :"إن الأدب الراقى يلهـمك مـثله والفن كـذلك، إنه كـشـف ولمس لـلأوتار الحساسة، ومن أدواره تقليب الوعى واستدراجك لتذوق المزيد وإقـبـالك على هذا النوع الحـسن والبـديع وتجنبك للتـافـه والمبتـذل..."، لذلك تقدر الشعوب الأديب العـبقرى والشـاعر الملهم والفنان الموهوب، وتتبهر به الجمـاعة وتتمنى الالتقـاء به

والاستماع إليه فهو صاحب منحة إلهية مميزة.

وبقدر الاهتمام بمنتجى الثقافة الرفيعة يكون ذلك دلالة على رقى الأمة، أما من يقبلون على المتدنى والتافه والفج الذى لا يعنيه الارتقاء بالقيم بقدر عنايته بهدمها، ولا يحفل بشحذ العقول والأرواح وإنما بتفريغها، فإنهم مثله، ويشترك الفريقان فى إنتاج ثقافة ثالثة أقل شأنًا وأفدح تأثيرًا، كما هو حاصل مع بعض الأفلام والأغنيات وحال المقبلين عليها، هؤلاء البشر الذين يصبحون مع الأيام عبئًا على الأمة وتاريخها وعلى حاضرها ومستقبلها، وإن كان البعض فيما يبدو - وخاصة بين كبار المثقفين والمسئولين - لا يدركون خطورة الظاهرة.

منتج الثقافة هو منتج النور والإشعاع والجمال وحب الطبيعة.. هو المفجر للطاقات وراعى القيم والمرتقى بالذائقة والمحرض على حب الوطن والتأسى بأشرف الأعلام.. إنه بإيجاز مجدد الحياة، ولذلك فهو فى مقدمة من تفخر به الأمة وتزهو، ولا أظن أحدًا يتصور أن ما أحرزه الغرب من تقدم كان نتاج العلم فقط، بل كان بما فيه العلم نفسه نتيجة لفكر منتجى الثقافة وعطائهم الفنى والخيالى والجمالى، ذلك العطاء الذى تغلغل فى العقل والوجدان وتحول إلى نضج وخبرة وإحساس وإلى فهم للحياة وقدرة متواصلة على نقد سلبياتها وإصلاح كل ما فيها من اعوجاج أو خلل، وما تحقق من حريات وحيوات جديدة على أيدى الثوار من خلق المبدعين ورؤى المفكرين.

القسم الأول

عن
ثقافة الشعب

هل نحن شعب مثقف ؟

أشعر بالأسف الشديد، وأحيانًا بالحسرة لأن كثرة كبيرة من أبناء الشعب سواء كانوا مواطنين أو مسئولين لا يستشعرون أهمية الثقافة، وقد أتيح لى على مدى من السنوات كبير أن ألتقى بعشرات الآلاف، فهالنى ما لمسته ودفعنى ذلك إلى تأمل المسألة طويلاً، حتى انتهيت إلى أن السر يكمن فى جهل الكثيرين بثقافة المصريين، بل ولا أبالغ إذا قلت - ولا داعى للحساسية - أن أغلب المسئولين الذين يتحملون عبء تسيير أمور الأمة وشئونها وبين أيديهم مصائرنا وفى ضوء توجيهاتهم يتحقق صلاح أو بوار حياتنا وتقدمنا أو تخلفنا، لا يكادون يدركون المقصود بكلمة"ثقافة".

الفكرة السائدة عنها إنها مجرد دلالة على كمية المعلومات العامة، وكثرة من الناس أو المسئولين تفخر بأنها تدرى المعنى الصحيح والدقيق لها بوصفها"معرفة شئ عن كل شئ، ومعرفة كل شئ عن شئ"، والحق أن هذا التعريف لا نصيب له من الصحة ولا الدقة، بل لا علاقة له بالثقافة من قريب أو بعيد.

لقد فات هؤلاء وغيرهم - سهوًا أو قصدًا - أن المعرفة وحدها ليست ثقافة، ولا المعلومات العامة ثقافة، وإنما الثقافة ببساطة ودون اجترار ما أكده علماء الحضارة والاجتماع ومختلف المفكرين هى"السلوك المتمثل فى القول والفعل"، فأى معرفة إذا لم تتحول

إلى سلوك إيجابى ومتحضر لا جدوى منها.. فما السلوك الإيجابى والمتحضر ؟

إنه المنتصر لقيم الحق والحرية والخير والجمال.. كل فعل يسعى لتطوير شكل الحياة إلى الأفضل والأرفع.. كل عمل يتجاوز الماضى والحاضر ويستشرف ويتوقع المستقبل.. السلوك الذى يحترم الآخر.. السلوك المبنى على الصدق والأمانة.. إن العالم الفذ إذا لم يحب الجمال ويدعم الخير أو يقاوم الظلم فهو ليس مثقفًا ولكنه عالم فقط، والزعيم الدكتاتور الذى يعرف ويقرأ أكثر من كل الناس، ويتحدث فى خطبه عن الحتمية التاريخية أو معاناة الجماهير أو يؤكد على ضرورة اللحاق بركب التقدم هو أمىٌّ ثقافيًا، لأنه بفقده الإحساس بالبشر وقهرهم ضرب القيم فى مقتل، والمسئول الذى يحل مشكلات الحاضر دون التفكير فى الغد متخلف ثقافيًا لأنه لا يأبه بالمستقبل متجاهل أن المستقبل ابن الحاضر وأنه سرعان ما يصل إلينا وأن له حقوقا علينا، والمسئول الذى يترك آلات التنبيه تحطم أعصاب العباد وتروعهم بالإرهاب الصوتى البشع لا يدرى بالقطع شيئًا عن الثقافة بوصفها مناخًا من الجمال والهدوء والرحمة وتقدير الآخر، ومثله المسئول الذى لا يزعجه انتشار الباعة الجائلين والمتسولين وعشاق القذارة حول المساجد والمدارس والمؤسسات.. الخ.

وأسوأهم عالم الدين الذى يجيد الفتوى ويمتلك بيان الواعظ وبلاغة الخطيب ثم لا يكون قدوة لنا ومثالاً فى التعفف والتواضع والعمل وجسارة الرأى فى مواجهة حاكم ظالم أو مسئول مقصر، فاصلاً تمامًا بين ما يقول وما يفعل، غافلاً - بتأثير الدنيا - عن قول رسولنا الكريم فى معنى الإيمان"إنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل"، ونفس قول الرسول الحكيم صلى الله عليه وسلم هو تعريف الثقافة.

ولعل من هؤلاء ذلك الفنان الذى يحرص على تقديم العروض التافهة أو المحتشدة بالإفيهات فقط ولا يعنيه إلا أن يروج الكلمات

البذيئة والمبتذلة، وهو بالطبع لا علاقة له بالفن ولا بالثقافة ولا بالضمير بل هو يدمر وجدان الشعب.. وتأثيره على الناس كالمخدرات.

وبعد.. فمن تُراه يملك فى بلادنا حق إفاقة هؤلاء من الغيبوبة.. ومن تُراه فى بلادنا يملك حماس المواجهة لكى يقول لهؤلاء وأولئك"إنكم لا تعيشون فى وهم فقط، ولكنكم تدفعون الشعب إلى أعشاش الوهم والخديعة"، إن الثقافة كما نعرفها ونلمسها لدى الشعوب المتقدمة فى الشرق أو الغرب تتمثل فى السلوك، حيث النظافة والنظام واحترام الآخر والتعاطف مع مشكلاته واحترام الملكية العامة، وإبداء الرأى بجرأة وأدب وإتقان العمل.. إنها كل ما يجعل الحياة جديرة بأن نحياها.

إن الثقافة بإيجاز هى كل فكر يلقى بظلاله على الحياة، والأفراد بمختلف طبقاتهم وتجمعاتهم مطالبون بذلك حتى يعزف الجميع لحنًا واحدًا جميلاً ومنسجمًا، لذلك أتصور أهمية أن تتنبه المقررات المدرسية والمدرسون أنفسهم لضرورة العمل على وضع الصيغة الجديدة للطالب الذى سيحمل المسئولية غدًا أو بعد غد.. الطالب الذى يتعلم كيف يكون إنسانًا نافعًا ومطوِّرًا وناقدًا لما يرى ويفعل، لا بد من خلق شاب مثقف لديه رؤية صائبة ونبيلة عن الحياة والعمل والعطاء، لابد أن يحس كل شاب أن المجتمع لن يكون جميلاً بذاته أو بالدعوات المخلصة لله.. كل شئ جميل هو من صنع شباب جميل والحق لابد له من رعاة، والصدق هو أقوال الصادقين.. وجودة العمل وحسن الأداء هما نتاج فعل المخلصين.

إن حياة بلا ثقافة هى أقرب إلى حياة البهائم الذين لا يعرفون إلا ملء البطون والاستهلاك والعمل كالآلات ثم الاستمتاع بالراحة، ولن أجد غضاضة إذا قلت إذن أننا فى الأغلب لا نعرف ثقافة المصريين ولا أظننا بالتالى شعبا مثقفًا.

بالطبع ليس هناك شعب بكامل أفراده مثقف، ولكن هناك شعبًا فى مجمله مثقف، أى أنه يمكن أحيانًا إطلاق صفة على عموم

الشعب وليس على كل أفراده، فلابد هناك غير المثقفين وغير الكرماء وغير الطيبين وغير المتدينين.. الخ.

المثقف هو الذى يتوجه نحو القيم النبيلة مثل زهرة عباد الشمس التى تولى وجهها صوب أشعة الشمس حتى قبل أن تفتح عينيها، المثقف هو الذى يسعى إلى الحرية والحق والجمال والخير والمساواة والعدل والكرامة، ويؤمن بالصدق والموضوعية والحب والسلام، ويرفض الغدر والقهر والابتذال والسوقية والسطحية والغوغائية والفجاجة، ويشجع التنوير والتطوير والتجديد، ويقاوم العاطفية والعشوائية والعنف والفوضى والارتجال، ويحترم إلى أقصى حد حقوق الإنسان والحيوان والطبيعة أيضًا.

المثقف هو الذى يقف دائمًا وراء كل شئ جميل بصرف النظر عن رغباته الشخصية ومصالحه أو مصالح ذويه، ونصل إلى سؤالنا الرئيسى"هل أغلبية الشعب يمكن أن تكون ممن تنطبق عليهم الصفات الآنفة..؟"، سوف نحاول جاهدين بأكبر قدر من الإنصاف النظر إلى الظواهر السلوكية السائدة وإلى قطاعات بعينها للكشف عن دلالات الثقافة، ونبدأ بمنتجى الثقافة.

ليس من شك أن منتج الثقافة أهم من المثقفين من عامة الشعب، لأنه هو مصدرها وهو الحريص عليها والحارس لتجلياتها ومكتسباتها، فهو الذى ينفق عمره وفكره وكل تحصيله الثقافى والعلمى وتأملاته لإنتاج أنساق ثقافية متباينة كالشعر والقصة والرواية والمسرح والسينما والغناء والموسيقى والفنون التشكيلية، بما يتفق ويعضد التوجه نحو المبادئ والقيم النبيلة، وكل ما ذكر من قبل تعبيرًا عن إنسانية الإنسان وروعة سعيه الحثيث لتنمية الأرض وحماية البشر من الطغيان والقبح والحرمان، ومن ثم فالمنتج للثقافة هو القدوة والمثال.. فهل كل منتجى الثقافة كذلك؟.

لو كانت الإجابة بالإيجاب فما السر فى الأفلام الهزيلة بل المشجعة على الفوضى والقتل والكذب والعدوان والزنا والسرقة والتفاهة ؟ لو كان المثقفون يتحرون جميعا التجويد ويفكرون فى

أحوال الأمة وسلوك البشر لما كانت هناك مسلسلات متدنية ومبتذلة وسطحية كمعظم ما يقدمه التليفزيون المصرى، ولو تركنا إنتاج المثقفين الذى يطرح فى الأسواق، فهل سلوكهم الشخصى يعزز القيم السامية وينتصر لها ؟ هل المثقفون كلهم يمثلون القدوة والمثال فى الشرف والنبالة والعطاء والترفع عن الصغائر ؟ الإجابة بالطبع متروكة لديكم ولدى أى متابع مهما كان قدره من العلم متواضعًا وقدرته على القراءة محدودة.

ونصل إلى المتعلمين الذين يمثلون نصف شعب مصر على الأقل، هل هم مثقفون ؟ هل ما حصلوه من المعرفة والعلم واطلعوا عليه من الكتب فى التاريخ والفلسفة وعلم النفس والاجتماع والأدب والتربية والجمال وما عرفوه من الشرف والإرادة والعمل والدين وكل ما يفضى لاحترام الآخر والحفاظ على البيئة وخدمتها وإتقان الصنعة والصدق والاستفادة من المنجزات العلمية والحيدة والنظام، هل كل ما درسه المتعلمون تحول إلى سلوك ؟

الإجابة واضحة تكشف للأسف عن أن معظم مرتكبى الجرائم التى يتم ضبطها من المتعلمين وأن مشاركة هؤلاء المتعلمين فى تطوير أعمالهم وتحسين الحياة وترشيد السلوك وخدمة البيئة قليلة جدًا، ومعظم هذه المشاركات سلبية، فهل يا ترى يتمتع الأثرياء من رجال المال والأعمال الذين يتاح لهم أن ينهلوا المعرفة من أصفى الينابيع بسلوك ثقافى - أى سلوك - ينتصر للقيم والموضوعية والانتماء والوطنية وخير الناس ؟ أظن أن القليل منهم يفعل.

فهل كبار الساسة من النواب فى مجلسى الشعب والشورى والمجالس المحلية والقيادات الرسمية يتسمون جميعهم بالأمانة والفكر واستقلالية الرأى والعطاء والإخلاص والشفافية والنزاهة مستشعرين أنهم القدوة والقيادة ولابد أن يكونوا المثال الذى يحتذى فى تفضيل العام على الخاص ونفع الجماهير على المصالح الشخصية ؟ لا .. وألف لا.

نصل إلى عموم الشعب ونسأل : كيف يتعامل سائقو التاكسى وأصحاب المطاعم وعمالها ورجال المرور والعاملون فى الفنادق وشركات الطيران مع السائحين ؟ ما السلوكيات الرشيدة التى نجدها فى دور السينما والمسرح والأماكن العامة والأسواق ؟ وماذا يحدث بالشوارع من الإهمال ورمى القمامة فى عرض الطريق والأصوات العالية والشتائم والبذاءات ؟

ما علاقة الشعب بالهوايات التى تكشف ثقافته ؟ ربما كانت هناك بعض الجموع تقرأ أو تصطاد السمك فى الأنهار، لكن لا شئ بعد ذلك، ولا يخفى عليكم أن تشجيع الرياضة ليس هواية وإنما سلوك استهلاكى لا قيمة له غير التنفيس، والعبرة بالممارسة.. هل لدينا أى معرفة بأى هواية تعلمنا الصبر أو تحفز الإرادة وتدفع للمثابرة والتعاون ؟ هل يمكن أن نثق بأن هناك ثقافة اسمها ثقافة الإتقان ؟ أم أن هناك فقط ثقافة الضحك على الذقون والفهلوة و"خدوهم بالصوت"و"اخطف واجرى" .. أتمنى أن أكون قد أسأت الظن.

الإنسان المصرى.. القضية الأولى

أنت لابد ترى السيارات تمرق كالصواريخ فى الشوارع بلا خوف من عقاب رادع، وتسمع عن مواطن يغرق فى بلاعة مجارى، وطفل لامس عمود نور أسلاكه عارية فصعقته، ويغرق مواطن فى بحر هائج لأن المنقذ انشغل بتأجير الشماسى، ويخترق قطار سكة حديد وسط مدينة فيدهس مُشاتها فى منظر عجيب.. والجزاء.. لا شئ تقريبًا، فالكل - عامل أو موظف أو سائق سيارة - مطمئن إلى أن يد القصاص قصيرة وحنون تكاد تربت على كتفيه بعقابه عقابًا رمزيًا يريحه من عذاب الضمير.. فهو قد تلقى الجزاء الكامل.. بضعة جنيهات.. وإذا سُجن فإفراج فى أول عيد كبير بعد نصف المدة لحسن سيره وسلوكه ثم يخرج إلى أحضان أهله يزغردون.. وأهل القتيل فى حزن إلى آخر العمر.

أصل المشكلة أن معظمنا لم يتعلم كيف يحافظ على أخيه الإنسان، ويحترم حريته وحقه لذلك ليس غريبًا على بعض الموظفين أن يمارس عقده على الجمهور، بصرف النظر عن شيخوخة البعض وحق البعض، ومنهم اليتامى والنساء والمحتاجون ومنهم من لا يملك وقته، ومع ذلك تجد الموظف لا يأبه، قرارات وظيفته من ناحية وطبعه السيىء من ناحية أخرى، يتعاونان على قهر الناس وإذلالهم وكأنهم ليسوا بشرًا.

سمعنا عن عالم مصرى يمر بالشارع متجهًا إلى سيارته، فتدهسه سيارة مسرعة يقودها شاب صغير، أو خبير يغرق فى باخرة نيلية تحمل أضعاف حمولتها، أو شاب طائش ومدسوس يطعن نجيب محفوظ رمز مصر الأدبى من أجل حفنة جنيهات، والأمثلة كثيرة، ومن قبله مات محمد عبد الحليم عبد الله الروائى الكبير ويحيى الطاهر عبد الله القصاص الموهوب فى حوادث صغيرة.

فهل ربى الآباء أولادهم على أن الإنسان كائن مقدس جدير بالاعتبار والاحترام حتى لو أخطأ ؟ هل يوجه المدرسون التلاميذ إلى أهمية الإنسان وعظمته وضرورة رعايته والحفاظ على مشاعره ؟ وهل الإنسان المصرى هو خليفة الله على أرض النيل ؟ هل هو محترم أو مكرم ؟ وعلى أى نحو ؟

هل يدرك المصريون مدى البشاعة الناجمة عن إطلاق آلات التنبيه بشكل مستمر وزاعق؟.. إنها تمثل طعنات فى جسد واحاسيس كل من يسمعها، وهل يحسون بمدى الجناية التى يلحقونها بالناس عندما يُلقون القمامة فى كل مكان، على حين لا يحفلون بالزهور ولا يلتفتون إلى الجمال ويفسدون الحدائق ويتركونها مهانة بمخلفاتهم.

والحكومة تحتاج إلى كثير من اللوم على حالة المستشفيات ومعاملة الأطباء للمرضى، ونقص الخدمات فى مدن وقرى الصعيد، وسوء حالة الكثير من المدارس والطرق وعدم تصديها للمخالفين والمقصرين فى حقوق الناس، ولا يجد العقاب الرادع من يأكل أموال الجماهير الكادحة، والبيروقراطية وحدها تقتل الآلاف كل سنة، كل هذا يدل على وزن الإنسان فى نظر أخيه الإنسان، سواء كان الجانى أو المقصر وزيرًا أو سائقًا .

موجه فى التربية والتعليم، أى يشغل منصبًا أعلى من مدير مدرسة، وهو موجه، أى معلم المعلمين، يشرف بالرأى والمشورة والنصح على عدة مديرين لعدة مدارس يعمل بها ما لا يقل عن

خمسمائة مدرس.. اختلف مع زوجته فمزقها وألقى كل قطعة فى منطقة وكذلك فعل بابنته.. هذه هى قيمة الإنسان المصرى.. عند أول خلاف يقطع ويمزق ويحرق ويلقى ماء النار على من يختلف معه.. وإذا كان محترمًا جدًا رفع قضية على كل من مسه بكلمة، ويضيع عمرنا فى المحاكم ومعها مشاعرنا وأعصابنا وراحتنا.

أحياء كاملة غارقة فى القمامة، أحياء كاملة غارقة فى الصرف الصحى، أحياء كاملة بنيت بشكل عشوائى، أين كان المسئولون ؟

ترعة الإبراهيمية على طول مائتى كيلو لا تظلل ضفافها الأشجار ولا تقام عليها الأسوار حماية للجمهور الذى يتساقط بهم كل يوم، السائقون المجانين الذين يتسببون سنويًا فى مقتل ما يزيد على ستة آلاف وإصابة عشرين ألفًا بالعاهات والتشوهات.. العشرات يتساقطون كل عام من فوق كبارى القاهرة، احترق خمسون فى قصر ثقافة بنى سويف، وغرق ألف من راكبى عبارة السلام فى مياه البحر الأحمر.. تصوروا البشاعة.. الإنسان المصرى المهان فى بلاده يحاول البحث عن بلاد أخرى تناسبه وتحترمه.

آلاف التحقيقات الصحفية حررها صحفيون، أنفقوا فيها أعصابهم وأعمارهم لا تجد من يجيب أو يهتم أو يخفف من آلام الناس إلا قليلاً.. والسبب يظل هو السبب.. نحن لا نعرف قيمة الإنسان.. وهو نفس السبب الذى اغتال فيه عدد من المتطرفين الأغبياء نحو سبعين سائحًا أجنبيًا أمام معبد حتشبسوت فى الأقصر.

يجب أن يتحمل الآباء مسئوليتهم وكذلك العائلات عمومًا والمدارس والمساجد والجامعات والمؤسسات، وينهضوا بمهمة مقدسة تسبق كل المهام، وهى التوجيه لاحترام آدمية الإنسان ومشاعره بل وطباعه وظروفه.

إن العالم كله يرقبنا باهتمام لأنه يتأمل حضارتنا المجيدة بشغف ورغم أنفه يقارن.. ويتساءل.. أين هؤلاء من أولئك ؟.. أين الحكمة

والخير والمحبة ؟

الانسان المصرى يجب أن يكون الغاية.. إذا لم يكن هو هدف كل مشروع، وهدف كل عمل، وهدف كل تعمير وهدف كل قرار والمقصود من وراء كل تطور وخدمة، فلن يكون هناك تقدم ولا ازدهار.. لأنه فى الحقيقة أهم ما فى مصر.. والإنسان المصرى لو تعلمون أهم من النيل والأهرامات.. لأنه لو كان فاشلاً ومحتقرًا يمكن أن يجعل هذه الأشياء مصدر تعاسة وخراب وليست مصدرًا للخير والزهو.

الحقيقة أن الشمس ليست مركز الكون ولا الأرض ولا النجوم والكواكب.. مركز الكون هو الإنسان.. ومصر مركزها المصريون، وهى هبتهم ونتاج عرقهم وكفاحهم، وعندما يرضى المصرى عن بلده لا يساويه إنسان فى العالم.

كيف تتعرف على ثقافة شعب خلال ساعات؟

من يهوى الرحلات خارج البلاد يشعر كثيرًا بالدهشة من قدرته على ملاحظة العديد من الظواهر الاجتماعية والسلوكية والتنظيمية أو الجمالية فى المدينة التى يزورها لأول مرة، وسبب الدهشة انه لا يملك نفس القدرة على ملاحظة المألوف وغير المألوف فى بلاده، ويصعب عليه أحيانًا التقاط الفروق والمستجدات العمرانية أو السلوكية.

ومن الطبيعى أن يتيه الزائر لهذه الملاحظات ويزهو فخرا متصورا إنه ربما كان الوحيد أو من القلائل، لكن الحقيقة أن ذلك أمر يسير ويدركه المهتم والمتابع وبالذات طبعًا المثقف الذى يمتلك حسًا نقديًا وميلاً للرصد والمقارنة والتقييم.

والتعرف على ثقافة شعب من الشعوب لزائر جديد يتم عبر عدة مستويات، فهناك ملاحظات يمكن التقاطها خلال ساعات قليلة، وهناك سمات يتسنى التعرف عليها خلال أيام وحسب حركة الضيف واتساع نطاق زياراته، وهناك مستوى زمنى ومعرفى أبعد يحتاج إلى المزيد من الوقت والدرس والاطلاع، أما عن الملاحظات الأولية التى تتم بصورة متدفقة وسريعة فيوفرها مجرد النظر إلى:

١ - حركة النقل والمرور.

٢ - الشوارع والميادين وعلاقتها بالنظام والنظافة وأوجه

الجمال.

٣ - الأنساق المعمارية للمبانى.

٤ - المقاهى والمطاعم.

٥ - معاملة الأنهار والآثار ومعالم الطبيعة.

٦ - الأصوات.

أما من يود أن يعرف المزيد، فبإمكانه خلال عدة أيام أن يتعرف على ثقافة أهل المدينة من خلال :

١ - المستشفيات الحكومية.

٢ - أقسام الشرطة.

٣ - الأسواق.

وتحتاج الدراسة المعمقة وقتًا للاطلاع على الصحف والكتب والسفر إلى الريف وأطراف البلاد والأحياء الشعبية، ويساهم الاطلاع على الروايات إسهامًا ملموسًا فى فهم أحوال الشعب وثقافته وجزءًا من تاريخه ومدى تطلعه للمستقبل.

وأحسب أن الخريطة التى عرضناها فى السطور السابقة لمستويات التعرف على ثقافة شعب، خاصة خلال الساعات الأولى للزيارة تكشف فى يسر وفى غير تأمل طبيعة الحياة المصرية فى شتى تجلياتها منذ الوهلات الأولى فور مغادرة الزائر للمطار، حيث يلتقى بشوارعنا المزعجة المعبأة بالدخان والعوادم، المحشوة بما تضيق به من السيارات والبشر والمكدسة بالمحلات والبضائع، الشوارع الصاخبة بالضجيج المتعدد والمتقاطع الذى يعد إرهابًا لا مزيد عليه.

ومعظم الشوارع كما سيراها السائح خالية من الجمال والأشجار والزهور وغير متسقة مع عمرانها ولافتات محالها، مضطربة الأرصفة ما بين صاعدة وهابطة، والقمامة أحيانًا ينساها المختصون بها، وأحيانًا يلقيها أصحابها دون أدنى درجة من المسئولية والإحساس بفداحة ما يفعلون، ولا توجد أرصفة لسير المشاة لأن التجار ركبوها واحتلوها بالبضائع دون رادع من ضمير

أو قانون أو تحرك مسئول، وهكذا نجد المارة يزاحمون السيارات فى نهر الطريق، ويصدق على كل هذا مقولة اختلاط الحابل بالنابل، لأن نهر الطريق متلاطم بأمواج البشر والسيارات بكافة أشكالها، وبعض الحناطير وعربات الكارو التى تجرها الخيل والحمير والبغال وأحيانًا أصحابها.

أما السيارات فقد تعمد أصحابها إفساد كل القوانين المرورية والقفز عليها وازدراءها، خاصة من جانب كائنات قبيحة ووقحة اسمها سيارات الميكروباص والأجرة، إذ يقودها فى أغلب الأحوال بعض الجهلاء وخريجى السجون والعاطلين ومن يتمتعون بأمية التربية وفجاجة الذوق إن لم يكن انعدامه، ولا يعرفون غير آلة التنبيه.. هى التى تقود وتفتح الطريق وتصرخ فى المشاة وتنادى على الركاب وتفزع الأطفال والشيوخ وتستعجل الإشارات البليدة، وتساعد كثيرًا فى اقتحام طريق مخالف أو شارع ممنوع.

منظومة هائلة من التجاوزات والتنطع وفساد الذوق وتجاهل الآداب والقوانين واستعراض كل ما هو ردئ من السلوك، أما الأنساق المعمارية وقبح الواجهات وبشاعة اللافتات وقذارة الشرفات والنوافذ فالقراء يعرفون عنها أكثر منى، ومثل ذلك قد يقال عن عالم المقاهى والمطاعم ولا ينجو من التجاوزات نهر النيل الذى تحسدنا عليه كثير من الشعوب.

ثقافة الاختلاف

يتجلى ملمح مهم من ملامح الشعوب المتخلفة فى الانزعاج من اختلاف الآراء ووجهات النظر، ويتوزع هذا الانزعاج أو ضيق الصدر بالتباين فى الرأى من مجرد ترك المكان وهجر الصحبة مؤقتًا إلى أن يبلغ لدى البعض حد التكفير.. أى محاولة إسقاط منحة الإسلام أو الاعتقاد الصحيح عن خصم الحديث، لعدم اعتراف البعض بأنه من الممكن وجود آخرين لهم رؤى تتعارض ورؤاهم مما يسبب لهم التوتر الشديد.

ورفض الاعتراف بالاختلاف نابع من استبدادية فكرية متراكمة ومتوارثة، سيطرت طويلاً على الأذهان بدعم من السلطة الأبوية المتغلغلة فى الشعب المصرى، إذ كان الأب هو المعبود بعد الرب وربما قبله، وكان قريبًا منه الأخ الأكبر وكذلك الزوج بالنسبة للزوجة، فقد كان بعض البشر قد منحتهم التقاليد قداسة غير مبررة فى محاولة للحفاظ على تماسك القبيلة أو العائلة وربطها بحزام حديدى لا ينحل لأى سبب، وقد حدث فعلاً أن كانت القبيلة فى شتى العصور كيانًا واحدًا متماسكًا وقويًا، تتنقل أوامر شيخها بين أفرادها فى سلاسة غريبة، ولم يوجد مطلقًا من فكر فى الاعتراض أو الخروج حتى لو مات كمدًا.

لكن العهود التى تصدرتها القبيلة انتهت مع التقدم وانتقال

الحضارات من جهة إلى جهة، وبادت الكثير من التقاليد وانكشف الكثير من العوالم المجهولة، وأصبح العالم أجمع قرية صغيرة، وغدا الفضل بين البشر ليس فقط بحسب التقوى، ولكن أيضًا بالعلم والخبرة والجسارة، فكما انحل البناء القديم تراجعت نسبيًا المعتقدات التى كانت تقدس الأكبر مهما كان مخطئًا، ورحب العالم المتجدد فى القرون الثلاثة الأخيرة بفكرة التمكين للمنطق والعقل والتخلى عن فكرة السلطة، فالأب ليس سلطة ولكنه - من المفروض - الأرجح عقلاً، وإذا لم يكن كذلك فهو أب بالإنجاب والإعالة وليس أبًا بالنصيحة الصحيحة والخبرة، ومن حق الابن أن يلتمس فى غير البيت أبوة عقلية، وعلى هذا فإن رفض الابن لرأى أبيه فى موضوع معين لا يجب أن يقابله بالسلطة والتعسف وإنزال العقاب، لكن بالحوار والحجج والمنطق.

وكذلك يكون الأمر بين الموظف ورئيسه فى العمل، فليس الرئيس متمتعًا بالحق الإلهى الذى يتحكم به فى الخلق ويفرض أفكاره ويصر على تنفيذ رؤاه مهما كانت خاطئة لمجرد أنه صاحب القرار وهو المخول بقيادة الوحدة أو الإدارة، فاقتراح إيجابى من موظف بسيط يتعارض مع خطة الإدارة ورئيسها لا يترتب عليه غضب الرئيس واستياؤه وتحديه وإنقاص حوافزه ومحاولة نقله أو التربص به لدى الرؤساء حتى لا يرتقى، ومثل ذلك يحدث بين الزوجين، فكثير من الأزواج لا يقبل أفكار زوجته أو مقترحاتها البناءة، لأنها تتعارض مع ما استقر فى ذهنه وروعه من آراء قديمة تجاوزها الزمان، ودائمًا ما ينشأ النزاع بسبب الاختلاف حول شئون العائلة واستبداد الزوج ورفض المنطق، وقد يحدث العكس فتستبد الزوجة إذا كانت هى صاحبة الكلمة وترفض حجج الزوج المتفتح المتابع للمستجدات، المدرك لصالح الأسرة.

لقد أصبح من المفترض الآن لدى الناضجين من الرجال والنساء محاولة التعود على شراء الأفكار والترحيب بها، وإعمال العقل فيها وبحثها من كل ناحية ثم الوصول إلى قرار، إما بالاتفاق مع الآخر

أو الاختلاف معه دون انزعاج، فمثل هذه الحالات من الاختلافات يجب أن ينطبق عليها قول التاجر والمستهلك"بين الشارى والبايع يفتح الله"، أى إذا أردت الشراء فأهلا بك، وإذا لم ترد فليست هناك مشكلة، وتمنياتنا أن يفتح الله عليك وعلينا.

هل يتصور أحدكم أننى إذا استوقفت"تاكسى"وطلبت منه أن يوصلنى إلى مكان بعينه وسألت عن الأجرة فيقول عشرين، فإذا قلت له لتكن خمسة عشر، فإنه يرد علىّ فى صفاقة قائلاً"خدها مشى أحسن.."، ثم يتركنى مسرعًا دون أن يرفض بأدب أو يتحاور أو يقترب مما عرضت عليه وفى بعض المرات قال السائق لبعض من يودون الركوب واختلف معهم"وهو أنتم شكل تاكسيات ؟".

وفى مرة استوقفت سيارة"مرسيدس"فخمة كان صاحبها قد ألقى بعلبة كبيرة من القمامة فى الشارع، وقلت له"لقد تلوث الشارع"، فقال الرجل لى وهو يكاد يسبنى"وأنت مال أهلك..!!"، وقال آخر عندما حملت إليه علبة بها بقايا طعام، وقلت له"لقد سقطت منك"قال فى وقاحة وهو يرانى فى أفخر ملابسى"هو انت اللى بتلم الزبالة ؟!".

إبان الدراسة فى الجامعة كنت حريصًا على التفوق فى مادة معينة خاصة فى السنة الرابعة حتى أعد حولها رسالة الماجستير إذا نجحت فيها بدرجة جيد جدًا أو ممتاز، وفوجئت أنى حصلت على مقبول، أصابنى الذهول، فسعيت للقاء الدكتور وهو مفكر كبير، ولما سألته فوجئت به يقول"هذه الدرجة تلائمك لأنك كنت تجادل كثيرًا.."أصابنى الذهول من جديد.. فهذا رجل معروف بالفكر والاستنارة وكنت أحاول جاهدًا البحث وقراءة المراجع وعرض أفكارى وبعضها يختلف عن أفكاره لكننى كنت أحترمه جدًا حتى جرى ما جرى، ولكن كيف جرى ولماذا ؟ وهل أنا مخطىء لأنى أبحث وأفكر وأعرض آرائى بأدب؟.

مثل ذلك يحدث فى المدارس المختلفة، فليس هناك مدرس يحتمل أن يرده طالب أو حتى يقول له"لم أفهم"، أو يذكره برأى

مختلف أو يقول له أن مدرس نفس المادة فى فصل آخر قال كذا، ولا يستطيع مدرس أن يعترض على الناظر، لأن معنى هذا أن يضعه الناظر فى رأسه ويثقل عليه الحصص ويضعها فى نهاية اليوم الدراسى، ويختار له من بين الفصول ما كان فى الدور الخامس حتى يقطع نفسه.

هل تتصور عزيزى القارئ أننى أجد متعة فى الاختلاف ؟ ليس من أجل الجدل واللجاج أو المشاكسة، ولكن لأننى أبحث عن الجديد من الأفكار والمعلومات والخبرات والتجارب، وكما يقول العقاد أن العمر قصير ويجب أن أجعله أعمارًا لا عمرًا واحدًا، ولا يكون ذلك إلا بامتلاك الكثير من المعلومات والآراء، ولن يتحقق ذلك من مصدر واحد هو الكتب، فمعها يجنى الإنسان الكثير من الأفكار من تلاقح ثمار العقول والتجارب، ولا بد لذلك من الإنصات والإمعان وحسن الاستقبال ثم ترتيب الأفكار المقابلة.

لقد خلق الله الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وليس المقصود فقط أنواع الناس والتقسيم الإدارى للدول، ولكن المقصود أيضًا أن الله خلق الناس مختلفى الأفكار والرؤى والنشأة والتربية والخبرة، لتتنوع هذه السمات الإنسانية وتفرض الحياة عليهم التعامل بمحبة، وتبادل الأفكار بالحوار وتحقيق التواصل بالنقاش الحر النبيل، الخالى إلى حد كبير من العقد والأفكار المسبقة المتجمدة، والحق أن العلاقات الحوارية بين المصريين فى الأغلب متردية للغاية وتشهد الخلافات والنزاعات التى تتراكم بين الناس فى المعاملات كمًا كبيرًا من رفض الآخر والاحتجاج على طرحه حتى قبل النطق به، كما أن أسلوب الاحتجاج يتصاعد بشكل أحمق - ربما من أجل شئ تافه - حتى يبلغ أحيانًا حدود القتل وإزهاق الأرواح، ولا أبالغ إذا قلت أن أرواحًا كثيرة قد تذهب فى غمرة الغضب الناتج عن سوء فهم أو كلمة خطأ صدرت دون قصد قد تدلع على أثرها النار بين العائلات.

وأحسب أن أغلب القضايا فى المحاكم من أسبابها غياب الحوار

أو سوءه، والنفس القصير فى النقاش وتصور أمور افتراضية غير موجودة أو الاعتماد على الشائعات دون تحقق أو انتظار من يدلنا على ما حدث بدقة وأمانة، وبذلك أتصور أننا بحاجة إلى بذل جهود كبيرة عبر الوسائل التعليمية والمؤسسات الدينية والثقافية ومنابر الإعلام لتجديد لغة الحوار وضبط مساراتها، وتربية الناس على الحوار الهادئ والبعد عن التعصب وكبح أشكال الاندفاع فى الحكم والاعتماد على الحقائق لا الأوهام أو الشائعات، ولا بد أن ذلك جميعه من آليات وسبل لتطوير أسلوب الحوار وخطوط التواصل يتطلب نهجًا تفكيكيًا لثقافة الاختلاف وطرحًا تحليليًا لأسباب غيابها تأكيدًا على أهميتها البالغة، لأنها لا تمثل وحدة واحدة فقط، ولكنها بؤرة تترتب عليها حزمة من التأثيرات التى تساعد بقوة فى رأب الصدوع وحل المشاكل ونزع فتائل الخلافات الثقيلة ودفع الحياة خطوات نحو صورة أفضل وأجمل، لأنها بالقطع ستؤلف مجتمعًا قويًا ومتماسكًا.. ومن أسباب غياب ثقافة الاختلاف ما يلى :

١ - أن البعض لا يؤمن بالمساواة وأننا جميعًا كأسنان المشط، فمهما علا المرء فى العلم فما زال ينقصه الكثير، ومهما بلغ من الثراء فهو أقل من آخرين يفضلونه فى العلم والنخوة، والحسب لا يمنح البعض رفعة تجعله يحتقر الآخرين، فنحن جميعًا أولاد تسعة وخرجنا إلى الحياة بنفس الآلية، وسينتهى أمرنا إلى نفس النهاية ولن يأكل الدود البعض ويترك البعض، فضلاً عن أننا جميعًا نتنفس الهواء ونشرب الماء وتعمل أجسادنا على نفس المنوال، فلم الغرور والتكبر ؟

٢ - رفض الآخر بوصفه جاهلاً مثلاً أو غريبًا أو عدوانيًا أو طفلاً أو امرأة أو.. أو... ولا يتعين أن يرفض أحدنا الآخرين لأى سبب، وقد تنبهت الجماعة الشعبية لذلك فقالت"يوضع سره فى أضعف خلقه"، وقالت"خدوا فالكم من عيالكم"، أى أن أعلم العلماء عليه أن يستمع بصدر رحب لمن يتصور أنهم لا يعلمون وأنهم لن

يكونوا مفيدين له على أى نحو.

٣ - غياب روح التسامح.. تلك الروح التى تدفعك لالتماس الأعذار للآخرين ممن أخطأوا، فقد يكون المخطئ فى حقك أو فى فهمك قد نسى أمرًا، أو خضع لفرية أو يعانى من مرض أو غلبه غرض وسيطرت عليه مصلحة، وقد يكون قد كوّن عنك فكرة تحتاج إلى تعديل.. وعلينا ألا نتهم قبل قيام الدليل.

٤ - معظمنا يتسم بالاندفاع دون قراءة العواقب أو التفكير فى نتائج الأعمال فيسرع برد الفعل دون تحقق، ويحرص على ألا يبدو ضعيفًا أو رخوًا.

٥ - تصورنا عن الرجولة فى الأغلب خاطئ، فكثيرًا ما يتجاهل الرجل العقل والمنطق، ويستعرض قدرته البدنية أو اللسانية فى مهاجمة الآخرين حتى يكون دائمًا هو المسيطر وهو الأقوى، فيقول البعض"إذا لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب"، ويقول آخرون "خدوهم بالصوت"... إلخ.

٦ - من أهم أسباب الانزعاج من اختلاف الرأى عدم استخدام العقل والحجة، وكثيرون هم الذين يضيقون باستعمال العقل ومحاولة ترتيب الأفكار، ويفضل الرجل أن يتصرف بسرعة ولتكن النتيجة ما تكون، فكم من نزاع شهدته أو سمعت به نتج عن هجوم شخص على آخر دون أى سؤال أو محاولة للفهم، ثم بعد ذلك تظهر الحقائق فيضطر للندم، لكن الأمور تكون قد ساءت واندفعت فى اتجاهات يصعب علاجها أو إعادتها إلى حالتها الطبيعية.

٧ - من أسباب غيابها أيضًا عدم تحمس المصريين للمعرفة وإيثار السهل والبسيط والمفرح أو المرضى وأيضًا الفكه والمضحك، وليس ثمة صبر على النقاش للاستفادة أو استجلاب المعلومات والتعرف على المزيد من الخبرات.

٨ - الميل إلى سوء الظن.

٩ - التعصب للأفكار الموروثة والجمود عندها كما فعل العرب عند ظهور الإسلام.

وهكذا نرى - حسب ما عرضنا له وما لم نعرض - أن الأسباب كثيرة والنتائج أكثر وعواقبها وخيمة للغاية، لأنها تمزق الروابط وتفسد العلاقات، وتفضى فى الأغلب إلى فشل الاتفاقات، كما أنها تؤثر كثيرًا فى عدم سيادة سمة العمل كفريق، فنحن نميل للعمل الفردى، أما الجماعى فهو معرض دائمًا للانهيار لأن الاختلاف ليس كما قال شوقى «لا يفسد للود قضية»، انه يفسد كل القضايا ويهدم كل ما تم بناؤه أو اتفق عليه.

سوف يؤثر بقوة عدم تقبلنا للخلاف فى مسيرة الأمة وانتظام توجهها نحو المستقبل، لأن البنية الداخلية التى يجب أن تقوم على الاختلاف الإيجابى والتعدد الذى يفضى إلى التوحد، والتعارض الذى يحقق المزيد من التماسك تتهدد بسبب عدم تقبلنا للآخر واحترامنا لرأيه وحسن الظن ومناقشة الحجة بالحجة والتسامح، وتأكيد آلية الحوار كوسيلة مثلى لحل كل نزاع وطرح كل فكر.

وهم التدين

تعود كثير من المصريين أن يطلقوا الأقوال المرسلة وصفًا لأنفسهم أو للشعب المصرى فى مجمله دون درس كاف أو تمحيص، ودون إحصاءات أو امتلاك علمى مكين للظواهر التى ينشرون أقوالهم حولها، فمنهم من يذهب إلى أن الشعب المصرى أذكى شعوب الأرض ومنهم من يجزم أن المصريين أكثر شعوب الأرض تدينًا، بل منهم من يدعى - ولا أدرى كيف تحقق من ذلك - أن المصريين من أقدر شعوب العالم جنسيًا، وأن الرجل المصرى مشهور بكفاءة جنسية لافتة تغرى نساء الجنسيات الأخرى بالإقبال عليه إلى آخر ذلك الحديث الذى لا يسانده منطق ولا تجربة ولا دراسة علمية مقارنة، ولو قال القائل أن المصريين أكثر شعوب الأرض صبرًا لصدق ولما احتاج إلى دليل ولحظى بتأييد الجميع، ولو قال أن المصريين من أكثر شعوب الدنيا ميلاً للفكاهة فما جانب الصواب، ولو قال إن المصريين يتقدمون على كل البشر فى الثرثرة لما عارضه أحد وإذا قال إنهم لا يهتمون بالجمال والنظافة لنكس الكل رؤوسهم اعترافًا.

أما أن يقول إن الشعب المصرى أكثر شعوب الأرض تدينًا فهذه مسألة تحتاج إلى نظر وتأمل لا يكفى لتأييدها ازدحام المساجد يوم الجمعة بملايين المصلين من كل الأعمار والأجيال والأنواع

والأهواء والمذاهب والاتجاهات بمن فيهم الشرفاء والمجرمون، ولا يؤيد هذا القول رواج تجارة بيع السبح واللوحات المزينة بالآيات القرآنية والكلمات الجواهر لسيدنا رسول الله محمد بن عبد الله.

ولا بد من الإشارة إلى أنى على المستوى الشخصى والمعرفى غير مؤهل للحديث عن إخوانى الأقباط الذين كانوا طوال عمرى نعم الأصدقاء والجيران والأحباب والزملاء.

ليست الإذاعات والأبواق التى تحمل إلينا آناء الليل وأطراف النهار تلاوات من القرآن الكريم وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ومختلف العلماء وليس الأذان الذى يتردد عبر آلاف المآذن والميكروفونات داعيًا للصلاة دليلاً مؤكدًا على تمام الإيمان وتمكن الدين من القلوب، وعمق علاقة المصرى المسلم بربه حتى ليحرص على هذه العلاقة باحترام تعاليم الدين فى أقواله وسلوكه.

وليس بدء الأحاديث والخطب وافتتاح المشروعات وبدء الطعام باسم الله الرحمن الرحيم بدليل على تدين قائل البسملة، بل ولا حتى ارتداء الحجاب والنقاب وغيرهما من الرموز توقيع اعتراف بالتدين أو عهد وثيق على احترامه لأن أشياء كثيرة وأموراً ملتبسة قد تقع فى المسافة بين المظهر والجوهر، بين القول والفعل، بين السلوك فى حضرة الملأ المبصر والمترصد وبين السلوك وحيدًا متفردًا. كما أن هناك مسافة بين الفعل والنية، بين الصوت المرتفع والضمير القابع فى أعماق النفس البشرية.

على أننا قبل أن نمضى حثيثًا فى الموضوع وننطلق بحماس لكشف غياهبه نود التأكيد على أن التدين فى مصر موجود، وموجود بقوة وتغلغل لدى فئات عديدة حتى يصل أحيانًا من فرط قوته وعميق تغلغله أن يتحول إلى عكس ما يدعو إليه صحيح الدين وحنيف الرسالة، وأزعم أن أفضل تجليات التدين فى يقظة الضمير وطهارة الذيل وتجنب الشبهات وفعل الخيرات، وتحتاج الأمانة المنطقية وليست العلمية فالأخيرة أدق وأصوب وبلوغ نهايتها ومجلاها عسير، أما الأمانة التى يرتضيها العقل والمنطق فتحتاج

إلى الإشارة أن الحكم بتدين شعب أو عدم تدينه لا يتحقق بالإحصاء ولا بالرؤية ولا بالأقوال المرسلة لأنها فى الأصل علاقة المرء بربه، ولكنها - وحسبنا هذا كبشر - تتبدى فى السلوك والأقوال، بل يجب أن تتجلى فى الأفعال فقط وليس مهمًا أن تظهر فى الأقوال، فليس مهمًا أن تبدأ طعامك باسم الله ناطقا بالصوت المسموع قدر أهمية أن يكون طعامك من حلال وأن تراعى آداب المائدة كما أوصانا الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومن تلاه من المعلمين الأفاضل، كأن تأكل مما يليك ولا تنظر لطبق غيرك أو طريقة تناوله للطعام، ولا تحدث صوتا ولا تبلع اللقيمات على عجل ولا تتحدث والطعام فى فيك، ولا يبدأ الصغير الطعام قبل الكبير، ولا بأس من الحوار البسيط الهادئ ولا بد من تجنب الضحك الشديد الذى يطلق من الأفواه نثار الطعام، ويُفضّل ألا تتعالى أصوات الملاعق، ويمكن تدبر مسألة اليمين والشمال ومثل ذلك مما يقال عند الدخول إلى الديار باليمين بدلاً من الشمال فهذا ولاشك مستحب إذا تم الدخول باليمين ولا بأس إذا نسى الأمر، وأهم منه ألا يدخل إلا بعد استئذان أصحاب الدار وأهم منه ألا يحمل ضغينة لهم أو يكشف للآخرين عوراتهم، وإذا كان الأقدمون قد قالوا أن الدين المعاملة فهذا تأكيد على ما ذهبنا إليه.

وفى هذا الإطار تأتى الأولويات التى أشرنا إليها، فأن تكون خاشعًا فى الصلاة مقبلاً على الله مستحضرًا عظمته أهم وأثمن من أن تكون حريصًا على وضع يديك على بطنك أو على صدرك أو تتلو الآيات بدقة وعن ظهر قلب بينما عقلك مسافر مع حساباتك ونزواتك، وروحك محلقة خارج بيت الله، فالصلاة إلى الله بقلب خاشع لا بد إنها مقبولة حتى لو كنت مائلاً عن القبلة قليلاً.

وعندما يقال أن الدين المعاملة يقصد بذلك أن الدين فى الأصل الأخلاق، خاصة فى الجانب العملى من الدين والجانب الغيرى الخاص بسلوك الفرد فى المجتمع، لأن الدين له جانبان جانب ذاتى

وفردى هو علاقة المرء بربه، وجانب غيرى أى مع الآخرين، الذاتى من الدين لا يعنينا، لأنه أكثر عمقًا حتى من علاقة الرجل بامرأته والزوجة بزوجها، فليس لنا فيه شأن أو نصح ولا أدنى علاقة من درس أو تأمل، أما الجانب الغيرى أو البشرى من الدين فأساسه الأخلاق، وباستطاعة أى فرد أن يحكم على الآخرين بالتدين من عدمه حسب الأخلاق السائدة واحترامها، وإذا تأمل المرء حالة المصريين وصورة الشوارع والمعاملات فى كل المجالات وأشكال التعاون والحوار فى الأحياء والعمارات ووسائل النقل وغيرها، وإذا راقب المرء الممتلكات العامة وغيرها فسوف يروعه كم الأخلاق المهدرة والطعنات التى تتلقاها القيم على أيدى المصريين، خاصة بعد بدء عملية الانفتاح العظيم الذى قلب الموازين والذى جعل المال هو السيد والغاية تبرر الوسيلة، ولا اعتبار لأى قيمة مهما كانت مقدسة.. العبرة بما يصب فى رصيد الثراء والاستحواذ.

ها هو الشارع المصرى يغرق فى الارتجال والغوغائية، وانتشرت البلطجة فى كل سبيل ودرب، وتم شراء الكثير من المؤسسات والمسئولين، وتجاوز الكثيرون الخطوط الحمراء وغلب الحرام، أى الاكتساب بالطرق غير المشروعة حتى لقد سرق شيوخ بعض المساجد صناديق النذور التى وضعها أصحابها للتجارة مع الله، وسرق شيوخ نجف وسجاجيد المساجد التى تبرع بها الطيبون أو التى جهزتها الدولة من أموال الشعب ودافعى الضرائب.

هذا الحال لا يكشف إلا عن انقطاع الحبل الأصيل، حبل الدين، الحبل السرى الذى يربطنا بالحياة الحقة، على حين كثر الكلام باسم الدين وأصبح اللص يبدأ يومه بطلب التوكل على الله، ويقول رئيس مجلس الادارة الذى ينهب مال الشركة فى مقدمة خطبته"إن الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"، ويقول"إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً"!!

هناك نوعان من المصريين الذين أتصور أنهم بعيدون عن الدين، أولاً : نوع قرر استخدام الدين على عكس ما أنزله الله، فيصبح

من ثم ستارة أو حيلة يستغل الناس بها أو من ورائها، ثانيًا : نوع قرر ألا علاقة له بمسألة الدين وعليه أن يعيش ويسلك كما يشاء، لا يذكره بخير أو بشر ولا يتبع تعليماته، ولا يثق بعض هذا النوع بمن يتبع هذه التعليمات، وهو يفضل التحرر تمامًا من هذا القيد، ولا يمكن وصفه بالإلحاد لكنه قرر أن يعيش الدنيا بالطول والعرض.

النوع الأول معروف ومنتشر، يسرق وينهب ويختلس ويغش ويكذب ثم يؤدى الحج والعمرة لعلها تمحو الذنوب وإذا لم تمحها فاسمه الحاج، ولعل هذا اللقب يمرر كثيرًا من المصالح، وآخر يقسم بالله انه صادق وهو من الكذابين، ونوع لا يكف عن تكرار ما قاله الله ورسوله وهو يضمر لنفسه النفع والضرر للآخرين.

إن ادعاء التقوى والصلاح لعبة ملايين الرجال، وتدليك الجباه فى الحصر والسجاد حتى تتفجر الزبيبة بوصفها شعار التدين لا علاقة له من قريب أو من بعيد بصحيح الدين وحقيقة مدعيه، العبرة بالمعاملة والأمانة والشرف.

إن عدة ملايين من المصريين يخرجون كل عام للعمرة والحج، وأتركك للقارئ الكريم تصور المخلصين منهم والصادقين، وأسأله عن النسبة التى يتجلى حجها وعمرتها فى أفعالها، ودون ترتيب يتفق هذان النوعان فى الهدف سواء من يحمل شعار التدين ورموزه أو من لا يدعى ذلك، إذ يسعى كل منهما إلى نيل مراده وبلوغ غايته دون اعتداد بقيم أو تعاليم أو قرآن أو سنة، ونسأل عن بعض الأطباء الجزارين والمحامين الذين تخصصوا فى نصرة الباطل ومهاجمة الأبرياء، وعن آكلى مال اليتامى والعاصفين بالزوجات والغشاشين فى الصناعة وذابحى الحمير والكلاب وبيعها، وماذا نقول عن الولد الذى يبقر بطن أمه طمعًا فى خاتمها أو يقتل أباه لانه يبخل عليه بالنفقة ؟ ماذا نقول عن مغتصب النساء وأرض الدولة وحقوق الآخرين ؟ هل يمكن احتساب غالبية البلاد التى تحتشد بخطايا الآثمين والمهملين من كبار رجال الدولة

وصغارها من المتدينين ؟

أبحسب الأقوال والآيات والأحاديث يعد الشخص الذى لا يكف عن ترديدها متديناً ؟ أم بارتداء الحجاب والنقاب ؟ أم بحسب المساجد المزدحمة والزبيب الراكب على الجباه يكون التدين ؟!

أفى بلد يخلو من العدل والأمن والحب ويشبع ربعه - أو أقل - ويجوع الباقى يكون أهله متدينين ؟ أفى بلد تخالف فيه الأغلبية كل اللوائح والقوانين وآداب النظام والأخلاق يوصف شعبه بالتدين؟ أم فى بلد يتعلم فيه الطلاب فى المدارس الكذب والفسق والعدوان والتسيب ومختلف الموبقات يسود الدين ويزدهر ؟ أم فى بلاد يكبر فيها المخطئون ويتألقون دون أدنى حساب ؟

أيها الجنيه.. إياك نعبد

أيها الجنيه الغالى.. ويا أيها الدولار والدينار.. يا أيها اليورو أو الإسترلينى.. يا أيها الين وحتى أنت أيها الدرهم.. نحن نعبدكم ولا نستسيغ طعمًا للحياة بدون أحدكم، ولدينا استعداد لبيع العيال من أجلكم وبيع الشرف والكرامة والأهل من أجل سواد عيونكم، لأنكم حتى لو كانت أوراقكم ملوثة، أو نجسة تسمون المال.

ونحن عباد المال وعشاقه، لا نرى غيره ولا نعرف إلا حبه، ولا نتصور جنة إلا جنة من صنعه.

أيها المال.. نمشى على الشوك فى سبيلك، ونتذوق المر برضا من أجل احتضانك، نكذب ونحلف بكل المقدسات بالحق أو بالباطل كى نحصل عليك وتنتقل من حسابات الآخرين إلى حساباتنا وجيوبنا.

أيها المال.. أى جريمة مهما كانت استحالت يسيرة من أجل عيونك.. وبعضنا يخنق أمه.. تحت قدميك، ويبيع زوجته وأخته ليستدفئ بحرارتك.

أيها المال.. أكثرنا يعبدونك ويقدسونك، ويتخلون عن كل عظيم من أجلك.. أنت لهم الدين والأم والأب والأهل والعزوة والجاه والسلطان، بل أنت محيى الموتى، وصانع الحياة.

أستغفر الله.. أنت المعز المذل.. القادر.. القاهر.. المغنى.. الرافع الخافض.. أستغفر الله عدد ذرات الرمال فى كل صحراوات العالم.

الظواهر مثيرة، والأحداث غريبة والسلوك أغرب.. ونسمع من الجميع تقريبًا أن الحياة أصبحت بشعة وفظيعة لا أمان فيها ولا سلام.. لا حب فيها ولا حنان.. لا كرم فيها ولا رحمة والحقيقة أننا كما يقول الشاعر :

نعيب زماننا والعيب فينا.. وما لزماننا عيب سوانا.

بعد انتصارنا فى أكتوبر ١٩٧٣ انطلقنا فى سياسة الانفتاح منذ منتصف السبعينيات، والانفتاح يعنى فى نظر كل من هبر الانقضاض على كل شئ، نهب كل ما نجده، الامتلاك والاستحواذ والسرقة والاختلاس، الخطف والتزوير والتنكر لكل القيم كأن الكل سيغرق وعليهم البحث عن النجاة بشتى الوسائل، حتى لو صعد الإنسان فوق أخيه ودهسه.

ويسرع الجميع باستحضار المثل القائل"إن جالك الطوفان حط ابنك تحت رجليك".. أى طوفان يا سادة ؟ نحن الطوفان.. إذا كان إحسان عبد القدوس قد كتب روايته (يا عزيزى كلنا لصوص) فاللصوص أرحم كثيرًا من النهابين الذين يسرقون أموال الدولة فى كل موقع.. ليس هناك فى مصر موقع واحد لم ينهب، وصفحات الصحف جميعها لا تكفى لمتابعة ورصد كل ما يجرى..الاستيلاء على الأموال وعلى الأرض وعلى المناصب وعلى المزايا وشفط الخزائن والمخازن، لا يوجد شئ غير قابل للسرقة، كله يصلح حتى الونش الضخم الذى يتجاوز وزنه خمسين طنًا.. سرقه اللصوص.

الغريب أن هناك من المسئولين من يصرح بأن الفساد منتشر فى كل بلاد العالم حتى فى أمريكا، ولا أدرى ما السر فى هذا التصريح ؟ هل يبرر السرقة ؟ وأن العالم كله لصوص ونحن جزء

من العـالم ؟ هـذا ليس مـبـررًا على الإطلاق، وهـذا الـتـصـريـح يدين صاحبه والأهم من هذا أن ميزانية أمريكا التى تتكون من عشرات التريليونات عندما تنقص تريليونًا أى ألف مليار فلا بأس، أما إذا فقدت ميزانية مصر عدة ملايين فقط فهى كارثة، خاصة مع ظروف شعب نصفه تحت خط الفقر، ونصف النصف يجد لقمة عيشه لكن بأساليب بعضها يجرم وممنوع وأكثرها حرام.

أساتذة الاقتصاد غير منتبهين أن كثيرًا ممن يعيشون حياة مادية معقولة لا علاقة لحياتهم بمعنى الحياة الحقيقى.. نعود لعبادة المال.. مؤكدين أن المال من أهم عناصر الحياة فهو الوسيلة التى يمكننا بها شراء حاجياتنا وتوفير طلباتنا وسداد التزاماتنا، لكن هل حاجتنا كرة نطلقها بعزم ما فينا إلى أبعد مسافة ثم نجرى وراءها ؟.. لا يتعين أن نطلق حاجتنا بينما ظروفنا لا تسمح بأقل القليل، وربما مع الأيام تتحسن الأحوال فننال ما نتمنى، ولو فعل الجميع ذلك فسوف تتحسن الأحوال بالتأكيد، فهى لا تتحسن الآن لأن غيرنا ينقض على ما كان لنا، فنحن نأكل بعضنا بعضًا.. المال فى غاية الأهمية ويجب أن نسعى إليه بالطرق المشروعة والمعقولة، المال مهم لكنه لا يدفعنى لإغضاب جارى ودهس أخى وضرب القيم وإهمالى لواجباتى الاجتماعية والثقافية، لا يلغى إنسانيتى ولا يسحق كرامتى.

سحقًا لكل أموال الدنيا لو تهددت كرامتى أو كرامة أحد أفراد أسرتى.. إلى الجحيم كل ملايين العالم لو تسببت فى غضب أمى لمدة ثانية، أو عبوس أبى وعدم رضاه علىّ لدقيقة، كيف تنظر إلىّ زوجتى وقد مددت يدى إلى مال الشركة ؟ كيف ينظر إلىّ أولادى إذا علموا أننى أرتشى ؟ لن يقبلوا ذلك منى مهما بلغ فقرى وساءت حالتى، مستحيل أن يكون هناك شعب فى العالم يعبد المال مثلنا، بعضنا يخسر فى سبيل المال دينه - أعوذ بالله - ولا يعبأ بكرامته ولا بأى شئ، المهم أن يمتلئ جيبه، ويستطيع أن يشترى ما يشاء

حتى لو فاض وتبدد، ولوحتى عاش عمره مطاردًا ومنبوذاً.

إن أهم ما يهدد المجتمع المصرى - من سنة ١٩٧٥ إلى أن يشاء الله - ذلك المرض الذى استشرى فى كل أنحاء الجمهورية وتسلل إلى كل مواطن تقريبًا إلا من رحم ربى، وإذا لم نتصرف جميعًا لإنقاذنا من هذا الفيروس فسوف يزداد التدهور لأن تعمير الأرض وإطعام الأبناء وتحقيق السعادة لا يكون بالأموال، ولكن بالأمانة والإتقان والإخلاص والصدق والتسامح والوفاء والتعاون والحب والرحمة والعدل، فلن تكون هناك أيام جميلة على الإطلاق، فاختاروا نوع الحياة الذى تريدون.

ثقافة تجاوز الحدود

لا أبالغ إذا قلت أن معظم المشكلات على الأرض وفى مصر بشكل خاص تنبثق من نبع واحد هو تجاوز الحدود، وتجاوز الحدود عبارة لا أحسب أنها تحتاج إلى تحديد أو توصيف أو تفسير فهى واضحه بذاتها، وتعبر عن تلك المحاولات التى ينسى الإنسان فيها نفسه وواجبه وحقه ومكانته، وربما سمعته وأيضًا أسرته وماضيه وقدراته، فيعبر الدائرة التى يتعين عليه أن يدور ويتحرك فى إطارها، فلكل إنسان مجال للعمل والحياة والحديث والمعاملات والحقوق والواجبات، وهناك خط وهمى يفترض أن يكون موجودًا وواضحًا جدًا، على الأقل لصاحبه، وفى حالات الضمير المستيقظ والنفوس النبيلة التى تلقت تربيتها من الدين وعلى يد أسرة كريمة تدرك معنى الحدود وأهميتها فى صنع السلام الإنسانى والمحبة بين الجميع، يتدرب المرء على احترام دائرته ومعرفة حدوده فلا يتعداها، ويتنبه دائمًا ألا يخوض فيما ليس له.

أنا شخصيًا أنظر إلى هذه المسألة نظرة ثقافية وعقلية قبل أن تكون دينية أو أخلاقية، فكثير من الناس ربما تأخذه العزة أو الجهل فيتصور أن الدين الذى يطالبنا باحترام الحدود يقيد حركتنا ويكبح انطلاقنا، ويمنع عنا رغائبنا ويعدنا بالجنة المؤجلة

مقابل حرمان عاجل وآنى ودائم، فمنهم من يولع بالمروق ويجاهر بالعصيان ويعلن عدم رضاه عن هذه القيود، لذلك أؤكد أن تجاوز الحدود أو مراعاتها بدقة أمر عقلانى وسمت شخصى، تترتب عليه مساحات المودة والسلام ورواج التجارة والصناعة وتقدم الأمة، بسبب توفر مناخ الطمأنينة والرضا.

ومن مراقبتى الدائبة لأحوال المصريين فى شتى تجمعاتهم، التجارى منها والصناعى والعلمى والثقافى والشعبى والترفيهى، تلتقط حواسى مختلف الصور فى كل دقيقة لتجاوز الحدود، فنحن فى الأغلب لا نحترم هذه الدائرة التى تؤطر آخر الحدود، رغم أن الأديان السماوية تركز على أهمية - بل وحتمية - احترام الحدود، ولعلها نزلت خصيصًا من أجل الحدود وليس غير، وأكاد أجزم أن كل الكلمات التى وردت فى الكتب المقدسة كانت تستهدف تذكيرنا وتعريفنا بالحدود التى تعد حصن الأمان.

ومن هنا نؤكد من جديد أن تجاوز الحدود هو العدو الأول للإنسان، وهو الذى يهدد حياته واستقراره ويحول تمامًا بينه وبين السعادة، وفى مصر يتمتع الجميع بثقافة تجاوز الحدود طبعًا إلا القليل، فالبائع يجور على المشترى سواء فى الميزان أو فى نوع البضاعة والصانع يجور على العميل سواء فى الأجرة أو فى إتقان الصنعة وآخرون يغشون، والمدرس يهمل فى الشرح فهو يتجاوز الحدود بإنقاص الحقوق، والطبيب يتعجل بتشخيص خاطئ ويبخل بجهده وعلمه ووقته على المريض، فتسوء الأحوال وتنشأ المشكلات وتثور النزاعات وترفع الدعاوى.

أما المسئول الكبير فيحول معظم الهيئات والمؤسسات إلى ملكيات خاصة، وبعد أيام قليلة من توليه المسئولية، يفتح مخازنها له ولأحبابه وأبناء عائلته ويتجاوز عن أخطاء الأصدقاء والمنافقين مهما كانت قاتلة، ويعصف بالمخلصين إذا لفتوا النظر إلى السلبيات، ويتجاوز حدوده بالتقصير عن رصد قوى الإنتاج وعن متابعة المنتج ويبخل على مؤسسته بالتفكير المستقبلى فيطور العمل ويخلص المخازن من

الراكد بحسن توزيعه وعرضه، ويهمل الآلات وينشغل بالإعلام وإرضاء القيادات الأعلى، وقد يصدر قرارات لا تدخل فى اختصاصه للتصرف فى ممتلكات المؤسسة، أما المسئولون الأكبر فهم - فى العادة - يتحولون إلى آلهة تطلب أن يعبدها المرءوسون بل الجماهير، ولا راد لكلمة تصدر عنهم ولا معقب، والصحفى فى أحيانٍ كثيرة من أجل توزيعٍ جريدة ولفت الأنظار يكذب ويؤلف أحداثًا لم تحدث ويذكر أقوالاً لم ترد على ألسنة من نسبها إليهم، والمسئول الحكومى الكبير من أجل أن يرضى الناس ويؤكد جدارته بمنصبه وسلامة توجهه يكذب ويطلق التصريحات الملونة والوعود الوردية عن الخدمات التى حققها وسوف يحققها، والتسهيلات التى وفرها وسوف يوفرها، وعن عشرات الآلاف من فرص العمل التى تنتظر الشباب والمستقبل المشرق الذى يتخلق فى أناة وسوف تتمخض عنه الأيام القليلة المقبلة.

وننتقل إلى أبسط المشكلات وأخطرها معًا، والتى تؤسس لها ثقافة تجاوز الحدود، وتتجلى فى لغة الخطاب ونبرته، فأغلب المصريين لا يمتلك أدوات معقولة للحوار، فهو إما صاحب صوت عال حتى دون غضب وله نبرة أعلى فى حالة التوتر، والبعض يختنّق بسرعة بعد جملتين ولا صبر لديه، والبعض مندفع حتى ليغضب بسرعة وينطلق لسانه بالخطأ قبل أن يفتح محاوره فمه وكأنه يعرف مسبقًا نية المحاور ويدرك ما يفكر فيه، والبعض يسىء الظن والبعض يتربص والبعض سريع السب والقذف، وكل تلك صور من تجاوز الحدود كفيلة بأن تترتب عليها نتائج وخيمة وعواقب غير محمودة، بالعربى.. نحن فى معظم الأحوال لا نحسن الكلام ونفكر قبل أن يتكلم غيرنا ونسبقه لنرد على كلام لم يقله، ولعل أحدًا من حضراتكم يقول إنها ثقافة الزحام، ولا أحسبها كذلك، وحتى لو كانت كذلك فلا يوجد من يردنا عنها ويبعدنا عن خطرها الماحق الذى لا يكتفى عادة بدفعنا إلى المحاكم، ولكنه فى الأغلب ينقلنا إلى الدار الآخرة أو على الأقل يتركنا بعد العلاج فى

المستشفيات ذوى عاهات.

والبعض يتصور أن المسألة فى الأصل مسألة كرامة، وانه لا يقبل أن يتجاوز الآخر معه الحدود دون عقاب رادع يكون فى العادة أضعاف الخطأ، وليس المثقفون بمنأى عن ذلك فهم متورطون فيه إلى أعلى الرؤوس، وتجاوزهم للحدود لا يكاد يتوقف بدءًا من الخوض فى الأعراض عبر النميمة إلى مواصلة التقليل من شأن منافسيهم، إلى خلق الأكاذيب عن انتفاع البعض وإذعانهم للشراء وخضوعهم للإغراء، وصولاً إلى ما هو أفدح، فتوفيق الحكيم لا يستنكف البعض أن يقول عنه إنه بلا موهبة وطه حسين حاقد، وعبد الناصر كان يعمل فقط من أجل نفسه ومندور بلا قيمة، وشوقى تقليدى ونجيب حصل على نوبل بالموافقة على كامب ديفيد، والشرقاوى سارق والعقاد متخلف.. هكذا بجرة قلم ولفظة عابرة نمحو شخصيات أنفقت أعمارها كلها فى خدمة الحياة.

إن حبى لبلدى ولأهلى من المصريين يدفعنى إلى أن أحاول البحث لهم عن سبيل آمن للحياة، وعن شكل من أشكال العيش الكريم القائم على السلام، وعن مستقبل يليق بماضينا العريق، وأشعر بالانزعاج لأن المدرسة أصبحت عاجزة عن القيام بأى دور من أجل إعادة تربية المواطنين وعلى الأخص الأجيال الجديدة، والحق أن فكرة تجاوز الحدود مسيطرة جدًا وغالبة وتتمثل فى معظم ما نأتى من فعل وما يصدر عنا من قول، وكل منا يتجاوز حدوده فى اليوم عشرات المرات، فما هو السبيل لإنقاذنا من ذلك ؟

أرجو أن نتعاون معًا للبحث عن صيغة ووسيلة لعلاج هذه العلة الثقيلة التى تتفاقم وتباعد بيننا وبين الحياة الهنيئة، إذ يبدو أن الدين وحده غير قادر على أن يخلصنا من هذا المرض العضال، ليس الدين بالطبع ولكن أتباعه الشكليين.

كم هائل من العشوائية

العشوائية - كما لا يخفى على القارئ الكريم - هى كل سلوك يقدم عليه الفرد أو الجماعة - حكامًا أو محكومين - دون بحث أو دراسة، أى دون ضوابط ومعايير أو علم وفى غياب القيم الجمالية والإنسانية.

والعلاقة وثيقة جدًا بيننا وبين العشوائية، فأكثرنا يلقى بنفسه فى أحضانها بسرعة عجيبة إيثارًا للكسل العقلى وكراهية للأصول والقواعد، وقد يكون بسبب الفقر أو سوء النشأة مثلاً، كما قد يكون بسبب العناد والخلاف مع الآخرين، أى لأسباب شخصية.

ورغم التزايد اللافت فى أعداد المتعلمين وخريجى الجامعات بالذات وعددهم يتجاوز العشرين مليونًا ومثلهم الحاصلون على الدبلومات الفنية من خريجى التعليم المتوسط، فإن العشوائية تترسخ وتتعمق وتنتشر وتواجهنا فى كل مكان وفى كل عمل صغيرًا كان أو كبيرًا .. رسميًا كان أو شعبيًا .. فى حين كان من المتوقع أن تنحسر موجة العشوائية مع تحصيل الفرد لقدر من التعليم يمكنه من فهم واستيعاب ما يجرى حوله واستطاعته تقييم كل سلوك، ومن ثم اتخاذ الاتجاه المناسب والمفيد والأسلم على المدى الطويل فى تسيير أموره وحل مشكلاته وتصريف مختلف شئونه من

أبسطها الى أعقدها.

ربما أكون قد أشرت إلى هذا الموضوع فى مناسبات سابقة لكننى كلما عزمت على عدم العودة إليه أجدنى مضطرًا لذلك، إذ تجابهنى وتجابه غيرى عشرات المواقف والإجراءات، بل والقرارات التى تستأهل الحديث عن هذا الموضوع الذى يعد إهانة لنا جميعًا لا يجب أن نستسلم لها، خاصة أن الدين نفسه الذى ندعى احترامنا له وتقديسنا لتعاليمه يدعونا ألا نسلك سلوكًا عشوائيًا له خواتم سيئة وعواقب وخيمة، ويكفيه دعوته الملحة لاستخدام العقل.

كان من المفترض أن نتبع دعوات الأديان فى هذا الخصوص وكان من المفترض أن يعدل العقل سلوكنا إذا لجأنا إليه، وكان من المفترض أن ينقذنا التعليم من هذا المستنقع، وكان من المفترض أن يكون للإعلام دور بارز فى استحداث سلوكيات جديدة تتسق مع معايير التقدم وعوامل الحضارة، وكان من المفترض أن نتعلم من آلاف بل ملايين التجارب الفاشلة والأخطاء المتلاحقة ومعظمها يأتى بحجم الكوارث الفادحة، ومع ذلك ومع كل هذه المستجدات والدروس فإن العشوائية فيروس يتغلغل فى أجسامنا وعقولنا وأرواحنا، ويتشكل فى صور جديدة ويهيمن تمامًا على كل سلوكياتنا، ونظل معه وبإرشاداته الحمقاء نتخبط، والتخبط ينتج المشكلات، والمشكلات تتعاظم وتتفرع إلى مشكلات أخرى، وكل ذلك يتحول إلى أزمات تتكدس وتتراكم ويتعذر البدء فى حل أى مشكلة لأنها تشابكت وتداخلت كالخيوط التى عبثت بها القطط المتناحرة.

كلنا يذكر طبعًا العشوائية التى لحقت باختيار الوزراء فى التشكيل الأخير وتضارب التصريحات، وكلنا يذكر أننا تساءلنا جميعا عن عدد كبير من الوزراء لأنهم مجهولون فى حين أن الدول المتقدمة يعلم الشعب فيها أو نوابه من الوزراء المتوقع قدومهم

بنسبة قد تصل إلى سبعين بالمائة، لأنهم يعلمون من هى الشخصيات التى يصلح أحدها لتولى وزارة الزراعة مثلا أو المالية أو الصناعة.

وهكذا نرى أن الحكومة أول العشوائيين، ولا بد أن أمثلة كثيرة تدلنا على ذلك، مع أن أغلب رجالها يحملون شعار العمل فى حكومة إلكترونية.

ولننظر إلى التعليم، وكيف مسح د.فتحى سرور من الوجود السنة السادسة من التعليم الابتدائى، واضطررنا بعد سنوات لإعادتها وكأن قرار المسئول مجرد اختيار شارع بدلاً من شارع للسير فيه، أو تناول اللحم بدلا من السمك أو شرب الينسون بدلا من القهوة !!

وتتجلى العشوائية فى أبهى مظاهرها فى المرور والنقل وفى المستشفيات وفى القرارات وفى الخدمات، وفى وسائل الإعلام وفى تصريحات المسئولين وفى المساكن والطرق والكبارى بل وفى القوانين.. أما فى حياة الأفراد فحدث ولا حرج، فالعشوائية مهيمنة بشكل غريب، فالمريض بالصدر يحرص على التدخين، والمريض بالكبد يشرب الخمر، والمريض بالقلب يتوتر بسبب وبدون سبب، دون أن يُقدر كل منهم خطورة ذلك على صحته، وكم يبطش رجل بابنه الذى يبكى فيضربه بقوة لكى يسكت ويتوقف عن البكاء فيظل يضربه حتى يقتله، ومحدود الدخل الذى لا يكاد يجد طعام عشائه يحرص على الاقتراض وعلى شراء الأجهزة بالتقسيط خاضعًا لضغوط زوجته ورغبة فى تقليد الآخرين، ثم يضطر للاختلاس وقد يكشف أمره شخص فيفكر فى التخلص منه حتى لا يبلغ السلطات بأمره فيقتله ويقبض عليه ويعدم أو يدخل السجن وتتشرد الأسرة.

ولا تندهش عزيزى القارئ إذا وجدت الآلاف من هذا النوع، كما أنك لا تندهش إذا علمت أن رجلاً لا يجد قوت يومه ينجب عشرة

من الأبناء ثم يطلقهم فى الشوارع للتسول أو السرقة، وبعضهم يكون مصيره سجون الأحداث ليتخرج منها فى الأغلب مجرمًا يساهم فى مزيد من العشوائية، والعشوائية الأشهر هى عشوائية المبانى، حيث يتوافد المهاجرون من مناطقهم الأصلية للعيش فى مكان جديد، ولأنهم غرباء وفقراء وغير مرخص لهم بالبناء الشرعى يسرقون الفرص للبناء غير المنظم ولا المرخص ولا القائم على معايير الهندسة الصحيحة.

وتتوالى العشوائيات لتتكون مجتمعات جديدة تعيش على الخطف فى كل شئ، فى البناء والعمل والحياة والعلاقات ومصادر الرزق، لتفرض واقعًا قبيحًا وشرسًا لا نستطيع تجاهله، القليل النادر فى مصر غير عشوائى، نشأ بالأصول ومضى عليها لكنه للأسف يتعرض لهجوم العشوائيات الزاحفة.

كل ما فى مصر عشوائى من أعلى المستويات إلى أدناها، والقاهرة أم العشوائيات ونموذجها الفريد، وتظل المشكلة هى أن العشوائيات ليست فقط منتشرة، ولكنها مصانع منتجة لأضعافها من العشوائيات المدمرة، فمن أين نبدأ ؟ ربما كان ذلك فى القرن الثانى والعشرين.

لن تقوم للديمقراطية قائمة .. إلا إذا ..

لن تقوم للديمقراطية فى مصر قائمة مهما تحركت الأحزاب وتشكلت المجالس النيابية، وسيطر القضاة على الانتخابات ودخلت السياسة الجامعات والمدارس، وتراجع رجال الأعمال عن الانقضاض على المواقع المتقدمة فى الدولة.

لن تقوم للديمقراطية قائمة حتى لو فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية التى مضى بها الغرور، فتصورت أنها قادرة على كل شئ بما فى ذلك إعادة صياغة كل أقطار العالم حسب هواها.

لن تقوم للديمقراطية قائمة فى مصر إلا بشرط واحد، يبدو فى كثير من الأحيان أنه ضرب من المستحيل.

ويتعين قبل أن نتوقف عند الشرط المستحيل أن نوضح المقصود بالديمقراطية التى اعتاد الكثيرون تفسيرها على أنها حكم الشعب نفسه بنفسه، وهو ما يكشف عن عمق درجة الالتباس التى واكبت عملية استمرت آلاف السنين من أجل توريث هذا المعنى وتأكيده، برغم افتقاده للدقة وقفزه على البديهيات والأولويات الطبيعية.

هذا التفسير فى الحقيقة ليس تفسيرًا أو توصيفًا، وإنما هو نتيجة يتوجب أن تسبقها مقدمات تفضى بعد تطبيقها إلى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، لأن فهم الديمقراطية انطلاقًا من

التفسير المشهور والتقليدى الذى يكاد يصبح بلا معنى ملموس ومحدد، وقع أصحابه فى أسر التحليل اللفظى للمصطلح اليونانى المكون من " ديمو قراط "، أما الفهم الصحيح لها بوصفها دلالة على الحرية فينطلق من كونها نتيجة منطقية فى قياس صحيح لمقدمات من الفعل والقول والحوار، وحالة صحية وأخلاقية من حالات التعامل والاتصال.

إن المسألة ترتبط أساسًا بقضية مهمة للغاية، وهى أسلوب حكمنا على القول والفعل الصادرين عن الآخرين، ومنهج تفكيرنا فى القول ورد القول والفعل ورد الفعل، واحترام الآخرين بما فيهم من الحيوان والجماد.

فى هذه المنطقة المفصلية المهمة والمؤثرة من آليات التعامل تبدأ مسيرة الديمقراطية، ومعها تبدأ عملية بناء المقدمات التى قد تفضى إلى نتائج سلبية أو إيجابية.

ومباشرة نقول إن إسلوب الحكم على الفعل والقول الصادرين منا هو أسلوب التمركز العاطفى وتهميش الموضوعى، التمحور حول الشخصى وإهمال الآخر، الاهتمام إلى أقصى حد بالذاتى والاستهانة بالعام واعتباره هدفًا ثانويًا لا يستأهل الانشغال وتعكير الدماغ.

أغلبنا يتصرف فى المواقف المختلفة تصرفًا تحدده أفكاره وأطماعه وعقده ومصالحه وانتماءاته، وليس تصرفا نابعا كما يجب أن يكون من منظومة القيم المعروفة كالحق والخير والجمال والعدل والحرية.

ربما كان السبب فى ذلك تلك المحنة التى عاشها المصريون خاصة والعرب عامة على مدى حقب طويلة تحت نير الظلم والقهر والطغيان، حيث بوصلة الحكم لم تكن أبدًا فى اتجاههم، عرق المجموع أو نجاحهم لم يصب فى حساب الفرد على أى نحو، وباختصار لم تكن مصر للمصريين، من ثم تعذر أن يكون المصريون

لمصر.. خير الدولة لم يكن لبنيها، وعندما جاء الوقت الذى يمكن أن يقدم الفرد الخير راجع نفسه كى لا يقدمه للمجموع.

مسألة غدت من كثرة التراكم وغورها فى أعماق النفس سلوكًا لا شعوريًا، إحساسًا غائرًا بالقطيعة بين ما يخصنى وما يخص المجتمع، علاقة منقسمة ومنفصمة تهرأت من طول العدوان، والتعود على اختطاف ما يملكه الفرد حتى لو كان الفتات.

لم يعد هذا السلوك منوطًا بالأميين فقط، أو مقصوراً على البسطاء من العمال والمهنيين والفلاحين والمهمشين والباعة الجائلين أو الذين تلقوا قسطًا متواضعًا من التعليم، بل هو سلوك يصدر عن أغلب المسئولين الكبار الذين يستثمرون مناصبهم، ولا يردهم رادع من ضمير أو خوف من النهاية عن نهب أموال الشعب، ولم تمنع رسائل الماجستير والدكتوراه كثير من أساتذة الجامعة أن يكونوا كذلك ويسيروا على نفس الدرب فى تغليب الذاتى على الموضوعى والشخصى على العام، ومثلهم بعض رجال الثقافة والإعلام والسياسيين، وبعض الوزراء والوكلاء ومختلف القيادات على تباين مستوياتهم.

فإذا كنا نستهدف تلك الغاية السامية وهى تحقيق الديمقراطية، فعلينا بتغليب العام على الخاص والنظر إلى الذات من خلال الموضوع واحترام القواعد قبل الأشخاص، وأهل الخبرة قبل الأقارب والأحباب، مع اللجوء للعلم ومناهجه فى كل ما نقدم عليه حتى لو كان عملاً خيريًا.

ونؤكد أن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق ولو بنسبة ٥٠ ٪ إلا إذا توافر ما سبقت الإشارة إليه، الأمر الذى أثق أن القارئ يؤيدنى فيه ويرى معى استحالة أو ما يقرب من استحالة ترسيخ قواعد الديمقراطية حتى تصبح سلوكًا عفويًا وطبيعيًا، يصدر عنا بصورة آلية ودون تفكير.

إن الموضوعية هى البوابة الرئيسية التى نعبر من خلالها إلى

الديمقراطية التى هى بدورها الممر الوحيد للتقدم، وبدون الديمقراطية فليس ثمة تقدم يذكر، وقد رأينا الجهود التى بذلتها مصر فى عهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، كيف كانت تهتز بشدة مع كل صدمة أو نكسة أو تهديد، لأن التجربة التى تمتعت بالتضحية والإخلاص والعمل الجاد لم تقم على الديمقراطية.

وغياب الديمقراطية يعنى فشلاً مزدوجًا، لأنه سبب مباشر فى فقدان الانسجام الاجتماعى والسياسى وتخبط المشروعات التنموية، فضلاً عن مساهمته فى تشجيع السلوكيات السلبية كالتملق وصعود الجهلاء ما داموا من أهل الثقة وليسوا من أهل الخبرة، واستشراء الفساد الذى يحميه الكبار بحكم سلطة الجهل، ويحميه الصغار بحكم الأطماع التى تعتمد على النفاق والتزييف، وهكذا تتدهور الأحوال تدريجيًا إلى أن يتعذر العلاج.

وقد شهدت البلاد وتشهد محاولات جدية للتطوير المادى لكن البنية التحتية للديمقراطية مازالت مهملة، وفى البلاد الديمقراطية نجد العامل يعترض على صاحب العمل، فلا يضطهده ولا يطرده، ويختلف الموظف مع رئيسه دون أن ينقص أجره أو ينقله أو يحيله إلى التحقيق، والطالب فى الجامعة يرد على الأستاذ بسبب شبهة تناقض فى رأيه، فلا ينزعج ولا يمنعه من دخول المحاضرات حتى آخر العام كما يحدث فى بلادنا، بل يزيد اهتمامه به، فإن تلميذاً نجيبًا واحدًا يعد مصدر سعادة لا تنتهى.

الموضوعية أو الديمقراطية تكون حيث لا يخشى الإنسان فى الحق لومة لائم، بل حيث لا يكون هناك من يلوم المطالب بالحق والمدافع عنه، فهل من ذلك شئ فى بلادنا ؟ وهى تكون حيث لا يفسد الرأى الصريح للود قضية، حقًا لا شعرًا، فهل من ذلك شئ فى بلادنا ؟

وهكذا علينا أن نعترف أننا فى مصر لا نعمل إلا بقرار، ولمدة معينة هى مدة شدة الغربال الأولى، ثم بعد ذلك يرتخى الأداء

وينسى الجميع الموضوع حتى من أصدر قراره، إننا نعمل بالأوامر وليس بالضمائر.. نعمل بتأثير الخوف وليس بحثًا عن الجودة والإتقان، وفى حالتنا هذه من الذى عليه أن يصدر القرار ؟ وهل تستحق حقًا قرارًا من أية جهة ؟

أى قرار هذا الذى يتوجب إصداره لكى نحترم القوانين والقواعد ونحترم حرية الآخرين وإنسانيتهم، وأن نرى الحق وندافع عنه وأن نقاوم كل ما هو باطل حتى لو كان حامل أختام الرزق، كيف يصدر قرار كهذا والله يقول فى حديثه القدسى " اطلبوها بعزة، فلن تموت نفسٌ حتى تستوفى رزقها "، نحن إذن مازلنا محتلين من كل ألوان الاستعمار، لأننا مازلنا نتصرف على أساس ما تركه المحتلون على مدى آلاف السنين، فمتى نستقل ونصبح أحرارًا.. أحرارًا من الداخل لا من الخارج، أحرارًا فى الأعماق.. فى الفكر والشعور.

كبير جدًا ذلك العمل المطلوب ليتحقق لنا ما نبتغى من أجل حياة كريمة، حقيقية وغير وهمية نلمسها على أرض الواقع، لا عبر اللافتات البليغة والخطب الرنانة.

منابع ثقافة الاستبداد

من حقنا الآن ودائمًا أن نلعن الاستبداد والمستبدين، خاصة الحكام الذين تتسع أمامهم آفاق السلطة وبالتالى مساحات البطش بالمعارضين والتنكيل بأصحاب الآراء المخالفة، من حقنا أن ندين كل ثقافة يمكن أن تنتج أمثال صدام وهتلر وموسولينى وفرانكو، الذين لم يجدوا ما يكفى من رموز المكافحة والتصدى لجبروتهم العاصف ولم تتيسر الفرصة الملائمة للحوار ولفت الأنظار إلى ما يتعين عمله لوقف عمليات متوالية من الانتهاكات البشعة لحقوق الإنسان ومواصلة أساليب التعامل مع البشر بوصفهم أدنى كثيرًا من الحشرات.

من حقنا أن نندد بهذه النظم، بل من الواجب أن نفعل ذلك دون أن يردنا عن هذه المهمة عائق أو تهديد، ولا أن تغرينا بالمهادنة أية مكاسب شخصية أيًا كان حجمها، على أن هذا العزم لا يمنع من الوقوف عند حقيقة مؤكدة وهى أن مقاومة الطغيان بالقلم واللسان حدث آلاف المرات على مدى تاريخ هذه المنطقة دون نتيجة ملموسة، وكان هناك أيضًا من يدعم هذا الطغيان نفاقًا وتملقًا.. كتابة وشفاهة.

لقد افتتح القرن العشرون بالذات بمقدمة قوية على درب هذه المقاومة، تصدرها كتاب" طبائع الاستبداد" للمفكر السورى عبد

الرحمن الكواكبى، وتعاقبت بعده المؤلفات والمقالات والصور الدرامية المسموعة والمرئية دون أن يحرز ذلك تغييرًا جذريًا أو يحقق تأثيرًا واضحًا فى مسيرة الاستبداد وشهوة المستبدين، لم يكف المفكرون والكتاب والفنانون عن التذكير بالخطر الداهم الذى يهدد الأوطان من تعاظم هذا النهج لدى الكثير من النظم العربية، إلا أن التوجه نحو الديمقراطية ظل محدودًا ولا يمضى فى أحسن الأحوال على نحو مطرد، وإنما هى ومضات هنا وهناك سرعان ما ينقلب عليها من دعوا إليها، ومن صنع الصنم هو نفسه فى الأغلب من يفكر فى تحطيمه بعد أن يعترف بصعوبة تطبيق الديمقراطية ومرارة طعمها، وأبسط خسائرها فى زعم الحكام وأهونها حديث العامة إليهم رأسًا برأس وصوتًا لصوت، فكيف يستقيم مثل هذا الحوار بين العظماء والدهماء ؟

إن المسيرة المتواضعة جدًا التى أطلت برأس مرتجف هنا أو هناك لم تمتلك القدرة على التأثير فى الحالة السياسية العامة، ولا فى إشاعة مناخ صحى يسمح للحرية بالتنفس بطلاقة، ولم يستطع أفراد الشعب أن يلتمسوا وسائل التعبير التى تمكنهم من البوح والعمل والإجادة فى اتجاه الإبداع والابتكار دون التوجس من طبقات الرقباء والكابحين.

وليس من شك فى أن التجربة الديمقراطية فى مصر مميزة عن غيرها من دول المنطقة وكذلك التجربة فى لبنان، ولكنها فى الحالتين وفى سواهما إن وجدت، تجارب سطحية لا تكاد تمس الأعماق، وربما التقطت موقعا لها على استحياء فى بعض المؤسسات التى وفقت بين أعضائها المصالح والمنافع.

ومن ثم فإن ثقافة الاستبداد هى فى الأغلب المسيطرة وإن اختلفت الأساليب وتعددت الصور.. كمًا ونوعًا، والسؤال المهم الذى لا مفر منه هو" ما السر فى هذه الحالة التى تضيق فيها الصدور وتحول بين الرؤية والآفاق البعيدة حواجز، والأسقف منخفضة ومجال الحركة محدود والقدرة على التطوير والابتكار ومن ثم

التقدم متواضعة ؟" هذه الحالة التى تعلو فيها يد السلطة أية سلطة بالعقاب والردع والإرهاب، وفى مقابلها تتجذر مشاعر الخوف والرعب والتقاعس والانكماش أو المداهنة والتزلف وتقبيل الأيدى وربما الأحذية ؟

أثق ثقة تبلغ حد اليقين أن الاستبداد طبع شبه عام وأصيل من طبائع العرب، أقول شبه عام أى أنه يضم أغلب أبناء الأمة، ويصدر عن البعض أحيانًا دون قصد أو تعمد، لأن ثقافة الاستبداد يتم تعليمها وغرسها مع الرضاعة وهدهدة الأسرة فى البيوت العربية، وتستكمل مراحل شتلها ونموها وتغلغلها فى مختلف التجمعات إلى أن تستقر فى نفوس الرجال حتى تغدو سلوكًا طبيعيًا، وقد سبقنا الشاعر العربى عمر بن أبى ربيعة بأكثر من ألف عام حين قال فى قصيدة إلى حبيبته هند " إنما العاجز من لا يستبد".

يخص الشاعر الكبير روح الطبيعة العربية وأصالة الطغيان فيها، ولم تزل تلك الروح على ما هى عليه، وتتجلى قبضتها وسلطانها الغائر والجائر فى استبداد معظم الآباء إزاء الأبناء والرجال إزاء النساء والمدرسين إزاء التلاميذ والنظار مع المدرسين والكبار مع الصغار وأصحاب الورش مع الصبية والمعاونين والسائقين مع الركاب ورؤساء الوحدات العمالية والإدارية مع الموظفين ورؤساء الهيئات مع العاملين حتى لو كانوا وكلاء وزارة والعمداء مع الأساتذة، ومثل ذلك فى وسائل الإعلام المختلفة، إن أى رئيس عمل أو قائد فريق حتى لو كان جاهلاً فهو فى بلادنا صاحب كل الحقوق والمتحكم تحكمًا صارخًا فى مصائر الآخرين، وهو الآمر الناهى والمفكر والعبقرى والملهم الذى يندر أن يخطئ، ومن يفكر فى المعارضة أو حتى المناقشة فعليه أن يتوقع أوخم العواقب.

وارد جدًا وقف حوافزه والخصم من مرتبه أو إحالته للتحقيق أو نقله إلى منطقة نائية أو تشريده، وربما دفعه إلى طلب الاستقالة

أو فى أحسن الأحوال تجاهله ورميه فى الظل، ولا تعجز الرؤساء الحيل، ولا يعدمون المعاونين الذين يسولون لهم ما هو أنكى.

إن الوجه الحقيقى لثقافة الاستبداد ليس فقط فى صورة الحاكم الديكتاتور وإنما يتجلى ذلك فى مجالات العمل والتعامل بمختلف مناحى الحياة العربية حيث تحتشد بذور الاستبداد وشرانقه لتتربى وتتجذر، وتتعدد أشكالها مع صلاحيات المناصب وسلطاتها.

وتحفل عندئذ بصنوف شتى من الاعتداء على أبسط حقوق الإنسان وأعقدها، بدءًا من السحل إلى الازدراء، إلى الاكتفاء بزرع الهم والكمد فى روحه حتى يعاف الحياة، وعليه إذن أن يعرف من لا يعرف أن ضحايا الاستبداد فى المحيط العربى على أيدى صغار الموظفين والمسئولين يعدون بعشرات الملايين، وأن من يود إزاحة هذا الكابوس وتغيير الأوضاع المؤدية إليه ومنع الأوساط التى تساعده على الازدهار، عليه أن يدعو لحشد كل الجهود والنوايا ودعمها بالقرارات الحاسمة حتى نقتلع الاستبداد وثقافته من البيوت والمصانع والمدارس والجامعات، علينا أن نكافحه فى كل مكان لأنه موجود فى كل مكان، وليس فقط فى قصور الحكام وعروش الملوك والرؤساء، إنه بالفعل داء حقيقى وتاريخى يتفشى فى كافة المستويات، والجميع مسئول عن تربيته سواء بحمايته أو بالسكوت عليه.

غرام بالكذب

تؤكد الكثير من المواقف والأحداث ومختلف النزاعات وما تتفتق عنه التحقيقات القانونية فى عديد من المشكلات والقضايا أن المصريين لا يعتمدون كثيرًا على الحقائق، فقد يكذبون ويصدقون الأكاذيب كما يتتبعون الأوهام وتؤثر فيهم الإشاعات، وقد تدفعهم لردود أفعال طائشة، فكم من أفكار بناها أصحابها على معلومات كاذبة، ومنهم من كان يعلم أنها كاذبة مثل كثير من وسائل النصب الحديثة المتمثلة فى مسابقات إعلامية تستخدم التليفون، ومن الناس من يستمتع بالكذب دون أن يدرك فداحة ما يترتب عليه من نتائج.

كم من زواج تم بناء على بيانات خاطئة أدلى بها بحسن نية أحد الأقارب أو الجيران، ثم تتكشف الأمور عن مأساة يصعب حلها، وكم من جريمة ارتكبها جناة اعتمادًا على معلومة كاذبة.

والمصرى تعود الكذب من قديم الزمان لأنه كان دائما مستعبدًا ومطاردًا ومحرومًا ومهددًا، لكنه حتى بعد أن تغلغل الدين فى روحه ونال بعض حقوقه لا يزال يكذب ليهرب من المأزق أو من الحرج وقد يكذب لأنه خجول ولا يستطيع المواجهة، وقد يكذب لضعفه أو لفقره أو لكى يحصل على ما ليس له.

والمصرى يكذب طلبًا لرضا القوى، فينافقه ويكذب عمومًا مع

السلطة، ويكذب كثير من الطامحين لزواج من أسرة أرقى أو لوظيفة لا تكتمل فيهم شروطها.

إننا جميعًا أسرى للكذب، ولا نعرف إلا فى النادر شيئا اسمه الحقيقة.. فالحقيقة فى نظر البعض صعبة سواء فى قولها أو احتمالها، لذلك نميل إلى الوهم.. والوهم هو أن نكذب على أنفسنا.. فيخدع شخص نفسه بأنه قادر على القيام بمشروع لا خبرة له فيه، ويتوهم شخص أنه سيكسب آلاف الجنيهات من عمل معين، ويقترض هذه الآلاف اعتمادا على ما سيؤول إليه.. والحكومات غير مبرأة فهى التى ابتدعت ذلك منذ مئات السنين، ولا يجد المواطنون إلا عكس ما تعد به، ويحدث ذلك غالبا حتى الآن.

نحن جميعا فى مصر تقريبا نكذب، ولو بدرجات متفاوتة.. إننا نكذب بسهولة جدا دون أدنى إحساس بالندم، فهذه المرأة الشريفة يمكن أن يقول عنها جارها إنها سيئة السلوك، وهذا الرجل المحترم.. مرتشى، وإذا حوصر الكاذب يرد بجسارة غريبة.. لقد سمعت ذلك.. الكل يتكلم.. فمن هذا الكل ؟.. ربما يكون غياب العدالة والإنصاف وقلة الفرص أمام الكثيرين فى حياة كريمة هو السبب المباشر، لكن ذلك ليس مبررًا لإغضاب الرب والضمير وتخريب العلاقات وملء حياتنا بالنزاعات والصراعات والآلام النفسية.

ومن الكذب المدمر ذلك الكلام المعسول الذى يسرف الشباب فى صبه فى آذان الفتيات اللاتى يسيل لعابهن تأثرا فيسقطن فى الغواية من"بياعين الكلام"وإذا مددنا الخط على استقامته سوف نصل إلى عمليات النصب التجارية التى يكاد لا يحصرها حصر، وأكاد أقول أننى من كثرة النصب أصبحت أحذر من أى إعلان عن سلعة فى الصحف والتليفزيون، فكثرة الإعلان عن سلعة ربما تكون دلالة على بوارها أو درءًا لعيوبها.

إننا أكثر شعوب العالم غرامًا بالكذب رغم تأكيد الدين على بشاعة هذه الصفة، وامتلاء الأمثال الشعبية بما يؤكد عجزه وضرره.."الكذب مالوش رجلين".

ولا يخفى على الجميع أن البلاد المتقدمة بنت ازدهارها وصروحها المتماسكة على الصدق قبل أى شئ آخر.. قام فيها العلم على الصدق المحض، وإذا كان البعض يدعى أن الغرب بلا دين، وهو بالقطع جاهل فإننا نؤكد على أن الصدق هو الدين الحقيقى للبشرية.

لقد نهضت حضارة أوروبا الحديثة التى بدأت مع القرن السادس عشر على الصدق فى المعاملات والصدق فى العبادة والصدق فى الكسب والصدق مع المهن والصدق فى التجارة والصناعة والصدقٍ مع الحكامٍ.. حالة كاملة وشاملة من الصدق خلقت عالمًا جميلاً وليس مزيفا.. حالة تختلف تمامًا عما يحدث فى مصر حيث تظل الشوارع قذرة إلى أن يفكر فى زيارتها الوزير أو المحافظ فتسرع العربات برص أصص الزهور والنباتات، ويجتهد عشرات العمال فى الكنس والمسح وطلاء الأرصفة، بل وطلاء الجدران، أليس هذا هو قمة الكذب ؟!.. فما معنى أن ترفع هذه الزهور فور مغادرة الباشا ؟

كل فرد فى الغرب يعبد الصدق قبل الله، مهما كان فقره وحاجته، وكل فرد فى الغرب بل والشرق أيضا يرى أن الصدق هو الله.. والصدق نفسه عبادة، ولا يرغمه شىء كأن يتعرض لخسارة أو عقوبة على أن يكذب.. الصدق فى نظر كل متحضر متعة، وفى نظر كل متدين هو الصلاح الحقيقى بل الأمان والاطمئنان والرضا عن النفس، وقد قال المسيح عليه السلام: ماذا يفيدنى لو كسبت العالم وخسرت نفسى ؟...

الصدق منجاة واحترام للنفس وللآخرين.. ونحن فى مصر نتجاهل كثيرا.. الحق والحقيقة. الحل طبعا يبدأ من المسئولين ومن مناهج ومدرسى التربية والتعليم والآباء الذين يكذبون كثيرا أمام الأبناء.. المهمة المقدسة يقع عبئها على وسائل الإعلام والمؤسسات التربوية المختلفة.. الوضع خطير وبشع، ليس فقط لأنه من الناحية الأخلاقية أمر سيئ ومرفوض، ولكن لأنه أساس منهار لكل بناء وسبب مباشر لمعظم الخلافات والتصدع الاجتماعى.

سد الخانة... صورة من الكذب

خانة كلمة تركية تعنى المخزن أو المكان الذى تتم فيه خدمات معينة، فهناك الكتب خانة، وهى المكتبة أو دار الكتب، والأجزاخانة أى بيت الأدوية (الصيدلية).. وليس لذلك كله فيما أعلم علاقة بكلمة"الخان"العربية وتعنى الفندق أو النزل، فقد يحسب البعض أن خان مذكر خانة، والأمر مستبعد، ومناسبة الحديث عن"سد الخانة"تدفعنا للقول إن المجتمع بأفراده وهيئاته الرسمية والشعبية منوط به مهام مختلفة ولا يحصرها حصر، إذ إنها لا تتوقف إلا بتوقف الحياة، وتختلف أحوال الأمم كما تختلف أحوال الأفراد وتتباين الحظوظ من هناء العيش ورفعة الشأن والاستقرار والسعادة بحسب درجة الصدق فى أداء المهام، لا بمجرد"سد الخانة".. والاكتفاء بمظهرية الفعل التى لا تقنع إلا من يتابع بطريقة سد الخانة ويراقب بنصف عين وربع قلب وبأقل القليل من العقل.

وتعبير"سد الخانة"الذى يعنى ملء الفراغ بأى صورة تعبير شائع وذو صيت.. له شعبية فى ربوع المحروسة، يمثل منهجا ثابتا للكثيرين منذ حقب بعيدة بتأثير ضغوط متعددة مثل الفقر والقهر إلى آخر تلك الأسباب السياسية والاجتماعية التى سادت وتكرست طويلا، إلى أن غدت جزءا من طبيعة بعض المصريين، حتى

ليقدموا على سد الخانة تلقائيا دون أن يكون هناك قهر أو فقر ولا أى شكل من أشكال الضغط والإجبار.

أعمال كثيرة تتم بنظام سد الخانة الذى يعنى فى نظر أصحابه فقط إبراء الذمة، وأنهم بذلوا ما يستطيعون، ومن حقهم أن يغطوا فى النوم بعد أن أصبح كل شىء "تمام".

وفى الحياة المدنية تواجهنا سد الخانة مع الحرفيين والفنيين، فمهندس الصيانة يمر على القطار ويبصم على حسن حالته ثم يخرج القطار عن القضبان أو تفقد الفرملة عملها، والميكانيكى يقنعك انه أصلح السيارة"ويلهف"أضعاف ما بذل من جهد، وفى الطريق تتكشف المأساة بالتدريج أو دفعة واحدة، ومثله السباك والنقاش والكهربائى، كما يفعل المقاولون فى رصف الطرق وتبليط الأرصفة، وفى تشطيب المبانى الحكومية الجديدة، فما أن يوقع المهندس المسئول بالاستلام حتى تظهر الشقوق فى الجدران وتتفكك درجات السلم، وتسيل المياه من الصنابير المغلقة، وينخلع الشباك إذا حاولت فتحه.. الخ.

وهذا بالضبط ما حدث عام ١٩٦٧ «كله تمام يا ريس».

كل هذا العنف

لم يكن ثمة عنف فى بداية الخلق والعصور السحيقة إلا بين الحيوانات الضارية التى لم تكن لديها الوسيلتان الأساسيتان اللتان يتمتع بهما الإنسان وهما العقل واللسان، ومن ثم اضطرت تلك الوحوش لاقتناص حقوقها والتعبير عن غضبها بالبطش والانقضاض والفتك وقد يكتفى أكثرها حبا للسلام بالمناطحة.

ولا مجال هنا للحديث عن تطور العنف فى العالم وعبر التاريخ المديد لمسيرة الإنسان على الأرض بدءا بآدم حيث بدأ العنف مبكرا على يد قابيل، وكان السبب أيضا افتقاده للتفكير وأسلوب التعبير، ولكننا نود الإشارة فى بعض هذه السطور إلى تفاقم الأحوال الإنسانية وتردى الظروف التى يعيش فى دوائرها الطاحنة ملايين البشر بسبب العنف المستشرى الذى تقوده أكبر قوى الشر فى العالم وهى أمريكا ومن دار فى فلكها وحذا حذوها.

ومهما كان العنف ظاهرة عالمية تهدد سعادة الإنسان وأمنه فلم نكن نتصور أن يصل ذلك إلى بلادنا المنبسطة جغرافيا وإلى شعبنا الذى يوصف بالطيبة وكان دائما كذلك على مر التاريخ.. شعب بسيط وكريم وراض.. يحب السلام والضحك، لا تسمح له ظروفه الاقتصادية المتردية فى الأغلب بالعنف، بل على العكس، لقد دفعت

الكثيرين للرضا والإيمان بالله والإقبال على التدين من أجل إلقاء الحمول على الله، وظل الدين لا كما يقال أفيون الشعوب ولكنه دلالة على رفض التمرد وإيثار السلامة والبعد عن العنف من أجل طلب الحقوق، ثقة بأنها بيد الله سوف يبعث بها إلى من يشاء وقتما يشاء.

لذلك لم يثر الشعب المصرى كثيرا وكما كان يجب أن يفعل بسبب سوء أحواله وضياع حقوقه ونهب أمواله واستعباده مكتفيا بالدعاء لصاحب الأمر، ونسى المصرى أن الله لا يساند المهملين ولا يؤيد الكسالى والخاملين، ولكنه قال إن تنصروا الله أى الحق ينصركم ويثبت أقدامكم.. إلى آخر النصائح التى كان يتعين على علماء الدين فض الاشتباك بينها وبين الاعتراض على الله أو شبه عدم التسليم له.

ولنتأمل الساحة المصرية الآن فى مختلف المشاهد والأركان حيث تتجلى مظاهر العنف بشكل زائد عن الحد، لا يرعى حرمة ولا ينتصر لقيمة ولا يقيم وزنا لأى فكر أو حوار ولا يعتد بنصوص الدين وأصيل المعتقدات.

ها هو أحدث مواليد العنف وأبشع تجلياته التى تعود بنا ملايين السنين إلى الوراء حيث كانت عصور الغابة.. إنها صورة أعضاء حزب الوفد المتصارعين على الرئاسة والمناصب، ويبدو أن الانتخابات المصرية التى جرت فى نوفمبر ٢٠٠٥ كانت تدريبا على العنف وتجهيزا لرجاله وتنظيما لأساليبه وإعدادا لأسلحته، إذ بدت الصورة غير لائقة مطلقا لا بالسياسة ولا بالأحزاب ولا بمصر وسمعتها، ولا بالعائد من كل هذا الاستنفار والهجوم الشرس والحماقة والضرر الفادح.

ولعل أحدا لا ينكر ولا حتى وزير الداخلية أن المعرض الدائم للعنف ومقر مؤسسيه هو أقسام الشرطة، والسجون حيث يمارس كل أشكال العنف التى تسبق أى سؤال، والحقيقة ليست الهدف بقدر الاستمتاع بالضرب والسب والبصق والبهدلة، ولا أريد أن

أذكر الآن على الأقل الأساليب الأفدح، وليس غريبا أن تكون بعض زوجات الضباط الأكثر تعرضا للأذى من أزواجهن، لأن الضباط يتحولون بالتدريج إلى سباع ضارية مستنفرة دائما ومتوترة.

أما شوارع المحروسة الآن فأصبحت حقا غابة، أول مستويات العنف فيها الأصوات العالية والقميئة التى تعد إهانة لأى إنسان محترم، ثم تأتى الألفاظ النابية الجارحة خاصة لأجمل المخلوقات وهى.. الأم.

وننتقل بعد ذلك إلى المعارك التى تندلع نيرانها لأتفه الأسباب، وكأن المعارك دليل الرجولة.. وسرعان ما تنضم بعض الفئات لأحد الطرفين وتنضم أخرى للثانى وتستخدم السنج والمطاوى والمسدسات والشوم وكل ما كان قريبا من الأيدى، أو تم إعداده.

وعن البيوت المصرية فحدث ولا حرج إذ تشارك فى العنف بأكبر نصيب بل هى الحضانة التى يتربى فيها العنف الذى يبدأ بقيام الرجال بضرب البنات والبنين بغرض الإرهاب والتأديب ومثل ذلك مع الزوجات تعبيرا عن الشخصية القوية، وأغلب الظن أن هؤلاء الرجال لا يدركون أن ذلك السلوك ليس إلا حماقة وأن العقل والتوجيه والقدوة والحوار هى الأساليب الصحيحة للتربية. وكل يوم تحفل الصحف بأخبار من ذبح زوجته أو ابنته أو بناته لأنه سمع بسوء سلوكهن.. هكذا.. كأن الأرواح أعواد من الكبريت.. نشعلها ثم نلقى بها دون أدنى ندم..

الأمر يحتاج إلى وقفة حاسمة من وسائل الإعلام والتعليم وعلماء الدين والكتاب والمفكرين.. لأن الحياة جديرة بأن نحافظ عليها وكذلك الأحياء.

علاقة المصريين بالأصوات

يتسم المصريون فى الأغلب بالحيوية والرغبة الشديدة فى التواصل ولديهم حس اجتماعى عال، وميول عميقة للالتحام بالآخرين والتعامل بقلب مفتوح وإقبال إنسانى متفرد، ويندر أن يتسم بذلك شعب آخر، فمعظم الشعوب تبدأ تعاملها فى حذر مع الغرباء، ويمر وقت قبل حدوث الاندماج.

ولعل السمات التى يتميز بها المصريون هى السبب فى اعتيادهم رفض العزلة والوحدة والاستحياء منها، والبحث دوما عن الرفيق والجار والصديق وحبهم للونس وطلبهم الدائم لنبض الحياة الدافق، وقد يكون السبب فى ذلك كثرة ما تعرضوا له من قهر وخطف ومطاردة على مدى آلاف السنين.. فقد طالت تلك الفترة التى خضع فيها المصريون للمحتلين والحكام الأجانب الذين ساموه أسوأ صور العنت والعسف، وأكلوا لحمه ونهبوا كل ما يملك حتى أبناءه سواء للحروب أو للعمل فى مشروعاتهم بالسخرة والجوع والجلد تحت شمس ملتهبة وسياط أكثر من حرارتها لهيبا.

فالفقر إذن وكثرة التعرض لأخطار السلطة وغيرهما من الأسباب شكلوا علاقة المصريين بالأصوات، التى تبدو فى مجملها علاقة تنحو صوب المستويات العالية وقليلا ما اعتمدت الهمس.. والهمس لا يكون إلا فى الحوارات السرية بين اثنين مثل تبادل

الحب أو الاتفاق على جريمة أو استعداداً للهروب أو كشف سر، أما السلوكيات العامة فمعظمها ينتسب إلى النبرة العالية.

فالأحاديث بين أفراد الأسرة تدور بالصوت العالى، ولو نزلت على سلم عمارة قريبا من أبواب الشقق لبلغتك كافة الأخبار والأسرار وفيض المشاعر الخاصة بأعضاء هذه العائلات، ومعاركها جميعا منقولة إلى السلالم والجيران..

ولا غضاضة عند المصرى أن ينادى من يعرفه عن بعد، حتى لو كان فى نهاية الشارع وبينهما مائتا متر، وربما لا يريده لأمر مهم، والمصرى فى حزنه يصرخ والنساء يولولن، بينما الحزن لدى شعوب كثيرة صمت وتأمل وقد يذرفون الدموع بغزارة تكشف عما يعتصر أرواحهم من ألم.. وتولول فى مصر النساء لحظات وربما يضحكن بعدها بصوت عال أيضا.. والضحك دائما يكون بالصوت العالى ويخرج عادة فى شكل موجات منغمة،ولا يعرف المصريون الابتسام، أو التعبير بالعيون.. وكلما عزموا على التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم لجأوا إلى الأصوات، حتى فى الدهشة ولا يعبرون بالشفاه أو بالعيون، ولكن بضرب الكف بالكف وتتوالى ألفاظ الدهشة.

وينادى الناس على ذويهم الذين يسكنون الأدوار العليا، سواء بأصواتهم أو بكلاكسات السيارات، وليس مهما إقلاق النائمين أو المرضى أو المنصرفين إلى القراءة أو تهدئة طفل.

والشوارع المصرية مسرح كبير تتجلى فيه كل أشكال الصخب الذى لا مثيل له على حد علمى فى أى بقعة من بقاع العالم، فحناجر الباعة متنوعة وعالية، بل يتنافسون فى رفعها حتى تنفر من الرقابة عروق الدم ولا يكتفى البعض بذلك وإنما يستعين بمكبرات الصوت، والسيارات لا تتوقف عن إطلاق آلاتها حتى لو كان الشارع فارغا، كم من مرة تملكنى الغضب وأنا أركب سيارة أجرة.. حتى لأكاد أتشاجر مع السائق الذى يدهش لاعتراضى عليه.

والمسجلات التى تذيع أغانى ما أنزل الله بها من سلطان، عالية جدا سواء فى الشارع أو فى السيارات، فأنت تجلس داخل سيارة الأجرة والمسجل بأعلى درجاته يلطم أذنيك وأعصابك، والسائق الجاهل سعيد بأن مسجله أعلى من مسجلات السيارات الأخرى.

أما عندما يحين موعد الصلاة، فإن كل المساجد تذيع الأذان داعية المسلمين للصلاة فى وقت واحد بأعلى نبرة وفى العادة بأصوات خشنة وأداء غير منغم أو جميل كما كنا نسمعه من سنوات.. فى الشارع الذى أقيم فيه نحو خمسة مساجد تصلنا بالطبع أصوات مكبراتها، وفى الشوارع المجاورة عدد آخر تصلنا أيضا أصواتها.. لتشكل جميعا صورة غير حضارية بالمرة.

الباعة الجائلون يمرون بالمكبرات أو بدونها، ويرفع كل منهم عقيرته لكى يسمع سكان الدور العاشر والخامس عشر، وإذا سمعوه تطل السيدة من شرفتها أو من النافذة لتطلب من هذه المسافة البعيدة الطماطم والخيار أو الخضراوات وغيرها.

على المائدة يميل المصريون، خاصة البسطاء وكذلك غير المتعلمين للاستمتاع بالطعام حتى لو كان مكونا من الخبز الجاف والجبن القديم فيلوك الرجل طعامه بصوت يسمعه من كان فى حجرة أخرى، وإذا شرب أحدث صوتا، ثم يتجشأ بأعلى صوت ممكن، ويحيى نفسه أو يحييه الآخرون بقولهم: صحة.. أى تمنياتنا بصحة جيدة، ثم يصدر بعد ذلك الريح من مؤخرته متمنيا أن يكون خروجها بصوت لافت.

والمصرى لا يعرف التفكير الصامت والتأمل، وحديث النفس الهادئ الوحيد، وإنما يؤمن بالتفكير ذى الصوت العالى ، ولا يفضل التفكير وحده.. وعادة ما يطرح أفكاره دون أى مراجعة.. مجرد مقترحات عبرت فكره لكى ينضجها على نار الحوار.

والمقهى حيث يجلس أغلب المصريين مرتع كبير ومزرعة مرعبة من الأصوات، لابد أن يكون هناك راديو عال وتليفزيون أيضا لا يتابعهما أحد، أو يكون مسجل يتقيأ الأغانى السخيفة التى تعادى

الفن، والنادل ينادى بأعلى صوته على الطلبات والكل يتحدث بنبرات عالية، ربما بسبب هذه الأصوات الزاعقة المتلاحقة.. وأقراص الطاولة تصفع ملعبها الخشبى والضحك يتعالى والتهديد والتحدى والسخرية والسب القبيح بينما تتناهى إلى الأسماع أجراس الدراجات العادية والنارية والسيارات ومسجلات المحلات المجاورة.

كل شئ معلن وصارخ وصادم وفج.. كل شئ واضح ومزعج ويتم بصورة خارجية وفى العادة تختلف عن الداخل.. ولعل ذلك سببه الميل إلى المظهرية أو الشكلية.. فالضاحك ربما كان حزينا، والصارخ الملول ربما لم يكن جزعا ولا تعيسا.. المهم أن الأصوات جزء أساسى وسخيف ومرفوض من ثقافة المصريين، ودليل مؤكد على التخلف وعدم النضج الحضارى.

نهضة المرأة المصرية..وهم كبير

المرأة المصرية مثل المرأة فى كل الدول الشرق أوسطية بالمعنى أو المفهوم الأمريكى.. أى من اندونيسيا وأفغانستان وباكستان شرقا، حتى المغرب غربا.. شهدت تطورا ملموسا وإن كان محدودا فى مكانتها الاجتماعية بفضل عمليات التعليم المتواصلة والتى بدأت بقوة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، فما كان من تعليم للبنات قبل ذلك لا يتجاوز فى أحسن الحالات واحدا فى المائة من عدد البنات، حيث لم يكن تأثير الثورة المصرية مقصوراً على مصر والوطن العربى فقط بل امتد إلى القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ولا يتعين النظر إلى المناصب التى اعتلتها المرأة هنا وهناك على أنها دليل على ما حظيت به المرأة وبلغته من مجد، فالمناصب قليلة جدا بالقياس إلى عدد النساء، وهى قليلة جدا إذا قورنت بالدول الأوروبية أو بدول أمريكا اللاتينية وبعض الدول الآسيوية والأفريقية، ويكفى التدليل على التراجع الواضح فى المسيرة المتوقعة للمرأة، من الإشارة إلى أن بمجلس الشعب اثنتين من الأعضاء المنتخبين من إجمالى العدد المنتخب وهو ٤٣٤ عضوا.

وعبر التاريخ الطويل الذى يفتح لنا صفحاته لنطالع فرص الصعود للمرأة، لن نجد غير أسماء قليلة لا تعبر بدقة عن قدرات

المرأة وملكاتها ومواهبها التى تستطيع فى حالة توفر الظروف العادلة أن تتفوق على الرجل بفضل الإرادة والجلد والطموح والمثابرة والابتكار واستعدادها للقفز على التقاليد والثوابت التى يمكن أن تكبح الانطلاق.

وليس لنا أن ننكر الأشواط المتألقة التى قطعتها المرأة على طريق التقدم فى مجالات عديدة مثل الرياضة والأدب والفن والعلم والعمل الاجتماعى، ففى العشرين سنة الأخيرة طلعت إلى النور عشرات الكاتبات، كما ظهرت المخرجات وسيدات الأعمال والصحفيات البارزات ولفتت الأنظار مئات السيدات فى مجال العمل الاجتماعى كما سبق وظهرت فى قاعات الدرس بالجامعات. على أن كل هذا لا يتعين أن يخدعنا فنتوهم أن المرأة تخطو بقوة نحو المشاركة فى القيادة وتحمل المسئوليات الكبيرة فى المؤسسات الرسمية ومنظمات المجتمع المدنى، وأنها تثبت وجودها فى كافة المجالات، لأن كل ذلك لا يتحرك على مساحة واسعة، بحيث يتجلى تأثيرها، فمازال دورها محدودا ومشاركتها متراجعة لا تتناسب وعدد النساء فى العالمين العربى والإسلامى، خاصة مصر.. وعلينا أن ننظر إلى حال المرأة العادية وليس التى صعدت إلى القمة.

والسؤال الأساسى الذى ينتجه الحديث السابق.. ماذا تريد المرأة أن تكون؟.. ما نوع المهام التى تريد أن تحمل عبئها، بل ما نوع الحياة التى يجب أن تعيشها، وما القوانين التى يمكن أن تسد النقص؟

أقول.. إن المرأة المصرية صاحبة إرادة وطموح وصبر، لكنها فى الإجمال.. مرهقة إرهاقا شديدا ومحملة بأعباء كثيرة وممنوعة من الحصول على أساسيات الحياة.. الفقر يحاصرها والجهل والمرض وكثرة النسل وظروف الحياة الصعبة، ثم يأتى دور المعاملة من الزوج والأب والأخ والقوانين المضادة لكرامتها وحريتها.

المرأة فى الأغلب لازالت فى بيتها عبدة وفى أحسن الأحوال خادمة، ونادرا ما تخرج فى نزهة وإذا خرجت فهى تخدم الكل

أثناء النزهة،

وتأمل حال امرأة موظفة تحمل فى الصباح الباكر رضيعها وتتحشر فى الأوتوبيس لتتركه عند والدتها التى تسكن فى حى آخر ثم تستقل الأوتوبيس إلى العمل فتصل منهكة وتتكرر نفس المعركة بعد الظهر، لا لتعود إلى بيتها، بل إلى السوق لتشترى لوازم الغداء لتسرع بعد ذلك إلى بيتها لتطهو الطعام وتنظف البيت وتستعد للغسيل ومذاكرة الأولاد، أو تتركهم للمدرسين لتجلس أمام مسلسلات التليفزيون، وقد تقلب القنوات بحثا عن الأغانى التى تتحدث عن الحب، الذى لا تعرف عنه شيئا.

الرجل فى الأغلب بعيد عن البيت، والزوجة الأم تلهث لخدمة الأولاد مسلحة بالصبر والأمل والأمثال الشعبية.. المرأة المصرية إذن وبهذه الصورة لا تصلح أن تكون سياسية أو مثقفة أو صاحبة رأى، لأنها حتى لو حصلت على المؤهل الجامعى، فهى لا تملك رفاهية القراءة.. لأن قطار الحياة الاجتماعية يسحقها سحقا وتصبح طيور السعادة فى حياتها لا تتمثل إلا فى ولد نجح فى المدرسة.. نكتة لطيفة.. لقمة لذيذة. أغنية، والأمل فى الستر.

المرأة إذن فى ظل الظروف التى تتحكم فى حياتها وفى تغلغل الفقر والزحام وغياب الزوج والأعباء الثقيلة عليها ورغبتها المرضية فى إنجاب الأولاد.. أولاد يرهقونها ويرهقون الميزانية لن تكون متحررة ولن يكون لها رأى فى أى شئ إلا القليلات منهن اللاتى يستطعن الذهاب إلى النادى، ومن السهل علينا إذن أن نحسبها.. كم سيدة فى الأندية وكم سيدة خارجها؟

المرأة المصرية مسحوقة والحديث عن نهضة أو ثقافة أو حتى تعليم، خدعة ووهم كبير نتحدث عنه فقط فى المؤتمرات وأمام كاميرات التصوير وميكروفونات الإذاعة. والخلاصة.. إذا تحسن حال المجتمع تنظيميا واقتصاديا وإنسانيا سيتحسن حال المرأة.

الحياة محتاجة تأملاتك

عندما خلق الله الإنسان ووهبه العقل، دعاه كثيرا عبر الكتب السماوية ودعوات الأنبياء والصالحين إلى استخدام هذه الملكة العبقرية التى لم تمنح إلا للإنسان، وبها اعتبره خليفته على الأرض.

والحق أن المحروم من نعمة العقل محروم من الحياة والذى منحه الله العقل ولا يستخدمه محروم أيضا، بل أكثر حرمانا، لأن المحروم من العقل يرحمه الآخرون بوصفه مجنونا أو مختلا عقليا، أما المتمتع بالعقل ويتنكر له ولا يلجأ إليه فى شتى شئونه من قول أو فعل فإن الآخرين يعاملونه بندية كاملة، ومن ثم يتعرض للإخفاقات المتوالية لأنهم يستخدمون عقولهم وهو يهمل السلاح الأول.

وفى القرآن حدثنا الله عن استخدام العقل وحدثنا أيضا عن التأمل وذكره باسم التدبر فيقول فى سورة يونس (٣)"ثم استوى على العرش يدبر الأمر"وفى سورة السجدة"٥"يقول سبحانه (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) وهنا تعنى التفكير والترتيب وعظمة الفعل وفى سورة محمد"٤٧"(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وفى سورة ص"٢٩"(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) صدق الله العظيم.

غيـر الآيات كثيـر تدعـونا إلى التـأمل وعـدم الاندفـاع صـوب الغايات بفعل أعمى... وإذا كان التدبر مطلوبا فى عصر بعيد كانت فيه الحيـاة غاية فى البسـاطة، فانه أشـد طلبا ونحن إليـه بأمس الحاجة لأن الحيـاة اليوم مـعقدة ومتناقضة ومتـعددة الأغراض والأحوال كثيرة التفاصيل، ففى السابق لم يكن غير الإبل وسيلة واللبن والتمر مـأكلا والخيمة سكنا، أما اليوم فبدائل ما ذكرناه يتجاوز الآلاف، وكل ذلك يفرض تفكيرا وتأملا وتقييما ودرسا وأسـئلة وانتظارا وتمعنا وصـبـرا ومـقـارنات ومـلاحظة ووزنا للمعطيات والإمكانيات ثم قراراً بعد استشارة ذوى الخبرة والعلم.

هاهى الحيـاة أمامكم، والأحوال واضحة ومكشوفة.. كل شئ معلن ومنشور.. وخريطة الأخطاء المتعاظمة بلا حدود، وقوائم الحماقات لانهاية لها، ومن ثم الخسائر الفادحة والأرواح المزهقة والأموال المبددة خاصة مع بعض البشر الذين افتقدوا الضمائر وغابت عن أرواحهم الحضرة الإلهية، وتراجع الكرم الريانى الذى يغمر كل ورع تقى.

الحيـاة تضطرم وتحتشد بالأحداث والأمور الاقتصادية والصفقات، الصغير منها والكبير وفيها العلاقات الاجتماعية من زواج وطلاق وميراث وغيرها من التعاملات كما أن بها الجوانب السياسية التى تشهدها الأحزاب والتربيطات للانتخابات والمجالس المحلية ونحوها، وهناك الأعمال المالية والمؤسسات والتجمعات والأنشطة الفنية والسياحية والتجارية.. والحركة فيها جميعا لا تتوقف والأفكار الصالحة والشيطانية لا تفتأ تتوالى وترمى شباكها هنا وهناك على الأفراد والجماعات فأين نحن من هذا ؟ كيف نخطو بين الشباك والشراك.. بين الكلمات المعسولة والوعود الكاذبة، وكـ ف نميز الخبيث من الطيب وقد أصبح الخبيث قادرا على أن يتخذ صورة الطيب المحب بل والورع.. كل هذا يتطلب تفكيرا وصبرا وتأملا.. بل إن حياتنا وحياة الآخرين بحاجة إلى تأمل وتدبر نحاول أن ندرس به التجربة ونقيم النتائج ونستخلص

العبر والدروس المستفادة.

أعرف أشخاصا لا يكفون عن الوقوع فى التجارب والدخول إلى الصفقات ويتعجلون المشاركة عن غير علم ولا بحث وسرعان ما تأتى النتائج الفاشلة ليستعد بعضهم كالمقامرين للوقوع فى غيرها متصورين أنهم أدركوا الثقوب والعيوب.

أوشك فى كثير من الأحوال أن أرى يد الله وهى تتدخل هنا وهناك وأحزن لأننى نادرا ما أرى الناس تفكر فى أيادى الله ولغته وتدبيره لحياة البشر.. أنا على ثقة أنه يتدخل كثيرا فى السر وبشكل غير مباشر ليعدل فى مسارنا ويصحح فى أفعالنا ونتائجها ومصائرنا ولكننا لا نتأمل.. إننا منهمكون فى الجرى والاستهلاك أو النوم واللعب.. البصيرة معطلة إلى حد كبير ونترك للدنيا لتحركنا كما تشاء.

الأسر المصرية فى زعمى ترتكب حماقات لا حصر لها خاصة عندما تكون الزوجة هى الحاكمة المسيطرة، والرجل يتصور أنه يوفر أكبر قدر من المال للأسرة حتى لو كاد يفقد صحته.. ليست الرجولة فى المال وإنما فى الرأى الرشيد وحسن القيادة، ولعل غياب الزوج بحثا عن المال هو السبب الأول فى فشل الأبناء وتفكك الأسرة وبعد أن يتنبه يكتشف الحقيقة التى كان يحاربها بجمع المال، لأن وجوده شخصيا هو الثروة الحقيقية.

كل ما فى حياتنا يمضى فيما أظن دون تأمل، بدءا من الصلاة إلى العمل.. إلى القرارات المهمة وإلى الإنفاق وإلى المعاملات مع الأهل والجيران، ولننظر فقط إلى عنصر واحد مثل رعايتنا لصحتنا التى هى عربة حياتنا.. ها هو الدخان يعصف بها والإدمان والجنس والطعام الزائد والأكلات المدمرة للمعدة.. ولننظر إلى اختيار الزوجة أو الزوج.. فكرة واحدة تسيطر.. زوج غنى وهذا يكفى دون العناصر الأخرى.. زوجة جميلة، ولا يهم الباقى وهكذا تغدو حياتنا اندفاعا وراء اندفاع، حتى على مستوى الحكم، وأحيانا ما يكون هناك صبر ميت وغير حكيم.

روعة هذا الفعل الجميل

لا أظن أحداً يمارى فى أن القراءة أفضل وأجمل وأرقى فعل مارسه الإنسان، منذ خلقه الله وزوده بالعقل والإحساس والملكات، وأى فعل آخر مهما بلغت أهميته، تابع لها ونابع منها.

القراءة ليست فقط قراءة الكتب والصحف،وتلك الصفحات اللانهائية التى يبسطها أمام العيون جهاز الكمبيوتر، وإنما القراءة كل رصد وتأمل ومشاركة وتحليل ما حولنا وما يمور بأعماقنا، وهذا هو المعنى المراد من التوجيه الإلهى للنبى الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل"اقرأ "ورد الرسول معترفا بأميته، ما أنا بقارئ، وتكررت الدعوة للقراءة، وتكرر الاعتراف بالعجز عنها إلى أن ينتهى التوجيه بقراءة سورة العلق"اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم".

كان المقصود إذن قراءة الكون وصور الحياة على الأرض وأحوال البشر وطبائعهم،ولزم لذلك أن تبدأ التربية الإلهية برواية القصص وحكايات السابقين لاستلهام العبر واستخلاص الدروس حتى يتيسر حمل أعباء الرسالة التى تقتضى التعامل مع الحاضر واستشراف المستقبل.

وما كان لنبى أو قائد أو حكيم، وما كان لراع أو معلم أو زعيم أن ينهض بأمور العباد والرعية إلا بعد قراءة عميقة ودائمة.

ومنذ فتح الإنسان عينيه لأول مرة وهو يقرأ، والقراءة تفضى إلى الأسئلة، والمزيد من القراءة يفتح الأبواب نحو الأجوبة، ومن ثم نحو المزيد من الأسئلة التى يعقبها فتح أبواب جديدة صوب أجوبة جديدة، لتتسع مدينة المعرفة المطلة على بحر العلوم.

فهل كان الإنسان بقادر دون قراءة أن ينتقل من الظلمات إلى النور ومن التخلف إلى التحضر ومن العجز والضياع إلى القوة والسيطرة على أقطار الأرض، ومن الجهل والخوف واللجوء إلى الكهف والارتداد إلى الذات، فإذا به الآن يمتلك فيوض العلم الغزير، ليفهم به أسرار الحياة فى كونه ثم متجهاً إلى أسرار الأكوان الأخرى. ليس ثمة شك فى أن القراءة هى مفتاح العلم والقوة والثراء وبوابة مهمة نحو الابتكار والتجديد.

هذا عن القراءة بمعناها العام، فماذا عن القراءة بمعناها المحدد والمعروف الذى يتمثل فى قراءة الكتب حيث يطالع القارئ فى كل كتاب مجموعة متجانسة من الأفكار والمعلومات حول موضوع واحد، تحدده وتفسر جوانبه، وتلقى الأضواء على كافة خباياه.

يسأل الكثيرون عن جدوى إنفاق الوقت لساعات، وإرهاق العيون، والانصراف عن بعض الأمور الشخصية والحرمان من التسلية والترويح استسلاما لقراءة كتاب.. هذا هو للأسف شأن كثير من الشباب الذين لا يدركون أهمية هذا الإبداع الإنسانى الفريد الذى يحتوى بين دفتيه على خلاصة الفكر وزبدة العقل وجماع التجربة والخبرة، وتخرجه المطابع فى الآلاف والملايين من النسخ، ليسهم فى إنضاج العقول وتزويد الأرواح والنفوس بما يعينها أن تعيش وتقبل على الحياة وتشارك فى تعميرها، وتجعلها جديرة بأن نحياها.

لا يظنن أحدٌ أن قيمة الكتاب هددتها المستجدات، كالتليفزيون

والانترنت وغيرها، فمازال الكتاب بوضعه المادى المعروف يملك سحره وجاذبيته بفضل آليته البسيطة الممكنة فى توصيل المعرفة بأزهد السبل وفى أى مكان، فإذا كانت كل أجهزة المعرفة كالتليفون فى المنزل والمكتب، فالكتاب كالتليفون المحمول، يكون معك حيث تكون، مخلصاً لك، معينا وجليساً خيرا من جليس السوء.

مازالت الفائدة من وراء الكتاب بلا حصر، ونفعه بلا نهاية.... ولولا تفريط المدارس فى بيان أهمية القراءة، ولولا ميل بعض الشباب إلى الكسل واللهو وإيثار الصورة السهلة، والشعور السريع بالملل، وفقدان الرغبة فى تنشيط العقل وتغذية الملكات الشخصية، وغياب الحماس لاكتشاف العالم لأقبل الشباب فى مصر على القراءة إقبال أبناء الدول المتقدمة التى لا تجد للقراءة قريناً ولا نظيراً مهما تغيرت النظم والمخترعات ومقررات التعليم، ومهما ضاق الوقت وقل العائد المادى، فالقراءة عندهم مقدسة، وهى أول ما يتبادر إلى الذهن بصورة آلية عند أى ساعة من فراغ.....

لا تفتأ الكتب تطل عليك فى الحدائق والقطارات تحتضنها الأيدى وتعكف عليها العيون، وكذلك فى الطائرات وفى البيوت وعلى جسور الأنهار وتحت المظلات على الشواطئ، وفى المستشفيات وفى فترات الراحة بين أوقات العمل..... والكتب قريبة من يدك حيث تطلبها.... على المكاتب وفى الحقائب وعلى جوانب الأسرة وفى جيوب الملابس، وبالطبع فى المكتبات والفنادق والأرصفة والمحال التجارية.

سألنى جارى يوماً : ما السر فى تقدم تلك الشعوب... هل المال أم السلاح أم العلم... أم الدين..... أم الديمقراطية ؟

فأجبته : كل ما قلته صحيح، ولكن قبله شيئا بسيطا هو الفارق الأساسى بيننا وبينهم، أن معظم الوقت الذى نقضيه على المقاهى يقضونه فى القراءة.

وسألنى آخر : ألدينا فى مصر كاتب مثل جى كى رولنج الإنجليزية صاحبة كتاب"هارى بوتر"الذى وزع أكثر من مائتى مليون

نسخة.

قلت : نعم لدينا، ولكن العباقرة في مصر لا تتجاوز النسخ المباعة من كتبهم ألفى نسخة.

قال : المشكلة مادية فى الأساس.

قلت : ألا يوجد فى بلادنا مائة ألف شخص تسمح ظروفهم المادية بشراء كتاب كل أسبوع ؟... إنها مأساة حقيقية، لا يتعين تجاهلها بأى حال لأن استمرارها إبقاء للتخلف وتكريس للسطحية والتفاهة.

وفى الختام نحاول فى عجالة أن نوجز مميزات القراءة ومنافعها التى لا تحصى:-

■ الحصول على المعارف والمعلومات والأفكار والأسرار وألوان الجمال الأدبى والفنى.

■ يجد المحب للقراءة متعة لا نظير لها يفتقدها من لا يعرفها، فثمة حواس كثيرة تتغذى بها وتثرى وتتفتح، ومسكين حقاً من لا يهواها.

■ إثارة الخيال واستنفار القدرات الابتكارية.

■ المساعدة فى تكوين الشخصية المستقلة والقدرة على الحوار والمناقشة وإبداء الرأى فى شتى القضايا، بما يؤدى إلى كثير من التماسك النفسى ويعتمد الأطباء النفسيون على القراءة فى علاج حالات مرضية كثيرة.

■ ارتفاع مستوى الأداء فى الأعمال أياً كان نوعها، والقدرة على الابداع والتطوير.

■ إتاحة فرص الترقى أمام من يحسن القراءة ويهواها، وتألقه بحجم معلوماته ومعارفه.

■ اتساع أفق الرؤية وتزايد فهم البشر والحياة، وكان العقاد صادقاً إلى حد كبير إذ قال : إننى إذا قرأت مائة كتاب فقد أضفت إلى عقلى مائة عقل.

■ الإحساس بالاستغناء، وهو شعور هام للغاية، لأنه يحمى

صاحبه من التدنى أو الترخص والابتذال، كما يحول بينه وبين النفاق والتملق، لأن القراءة قوة.

■ من خلال القراءة يتاح المجال لاكتشاف الموهبة التى قد لا تبين وحدها،ومع قراءة الشعر قد يكتشف المرء أن لديه استعداداً للإبداع فيه، ومثل ذلك مع القصة والرواية والمسرح حيث تتفتح الرغبة فى ممارسة قالب من قوالب التعبير.

■ تربى الإحساس العميق بالحرية، والشوق للأفضل والنزوع نحو القيم الرفيعة.

■ يمكن أن تكون وسيلة لكسب مادى من خلال المسابقات الثقافية، فضلا عن التميز بين الرفاق.

وفى مصرنا الحبيبة تراجعت القراءة لأسباب عديدة، لكن الكرة فى ملعب الوالدين والأهل عامة، وفى عنق وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية والشبابية... وأيضا تقع على عاتق وزارة الثقافة ومؤسساتها الرسمية والشعبية..... فالغد الأفضل معلق بالقراءة بوصفها القاعدة الأساسية لكل تطوير والمصدر الأول لكل معرفة وثقافة.

القسم الثانى

عن منتجى الثقافة

دور الأدب والفن

الأديب أو الفنان إنسان ذو مواصفات خاصة منحه الله سلطات لم يمنحها لجميع الناس، وهذه النوعية من البشر استهدف الرب أن تكون كالورود بين النباتات... كائنات لها سحر وإشعاع... تمتلك قدرات معينة تستطيع بها أن تثرى الحياة وتغيرها، وتدفعها نحو الأجمل والأرفع.

كلاهما فى روحه بلورة صافية ومتألقة، بها إمكانية الجذب والتأثير والاستعداد لإعادة رؤية ملامح الحياة فى صورها الجزئية والكلية، المعروفة والمجهولة، ومن ثم إبداع حياة جديدة موازية من خلال أجناس وأشكال الأدب والفن تمتع المشاهدين والمتلقين على اختلاف المذاهب والمشارب.

هذا الابداع يتمتع بوهج فاتن وألق فريد يعينه على أن يستحوذ على العقول، ويمضى إلى القلوب والأرواح فيسرى فى خلاياها، ويسعى من خلال اللاوعى إلى صياغة طبقات من الأحاسيس الجديدة، والرؤى النبيلة، ورفع مستوى الذائقة لاستيعاب كل ما تحتشد به الحياة من جمال، ورفض ما فيها من قبح... معانقة ما فيها من خير ومحبة وسماحة، واستنكار ما يشوبها من قسوة وعدوانية، يساهم الأدب والفن فى خلق روح جديدة تقدر الفكر

والمبـادئ والقـيم، وتتـسـامى على الدنايا والصـراع المادى المقـيت، وتتـأكد بالأدب والفن قيمـة الإنسـان كخليفـة لله على الأرض حيث يتجلى بقوة الفارق بينه وبين الكائنات الأخرى التى لا تملك إلا أن تتصارع وتتكاثر وتنهل من الماديات بآلية وحيوانية.

وإذا كـان هذا هو دور الأدب والفن، فـإن الأديب أو الفنان المنتج لهمـا، إنسـان يملك أكثـر ممـا يصـدر عنه، أو على الأقل مـثله، وهو لابد أن يكون بوتقـة إنسـانيـة رفـيعـة وبؤرة إشـعـاع لا تكف عن بث أنوارها وأصالتها، فهو ليس فقط صاحب موهبة لإبداع التشكيلات الفنيـة، زمـانيـة كانت أو مكانية، لغوية أو يدوية أو بصـرية... وإنما هو كيان خاص، نحسب إنه بما لديه من قدرات ثقافية وتأمـلات فكرية ونفسية يستطيع أن يستشـرف الآفاق المستقبلية ويتصور إلى حد كبيـر شكل الأيام المقبلة، على الأقل فى كلياتهـا، ومـا يمكن أن تحمله من آمـال ووعود، لأن الأديب أو الفنان فى الحـقيقـة أقـرب لزرقـاء اليـمـامـة التى ينتظر منها قـومهـا أن تنبـئهم عمـا يمكن أن يجرى من أحداث تقع على بعد زمنى لا تراه العيون.

والأديب أو الفنان فى صورته العـادية إنسان شفـاف ونبيل يدعم كل ما فيه خير الآخرين، ويرعى مسيرة الأمة نحو التقدم ويحتضن تجـارب الأجيـال الجـديدة من الموهوبين، ويذلل أمـامـهـا العـقبـات ويشـجـعهـا بكل الوسـائل ويلقى عليهـا الأضـواء، ويلفت إليهـا النظر، ولا يتقاعس عن تقديم المشورة والنصح.

أمـا الأديب أو الفنان فى صـورته المثلى فـواحـد من أهم حـملة مشـاعل التنوير والإصـلاح والمقـاومـة، ويـأتى دائمـا فى مـقـدمـة الصـفـوف التى تواجـه التـخلف والسلبـيـة والنفـعـيـة والنفـاق والانهـزاميـة، وغلبـة الأغـراض على مـصـالح الوطن والجـمـاهيـر، وكذلك الظلم والقهر بشتى اشكالهما.

الأديب أو الفنان ابن الأمـة البـار الذى خلقـه الله خصيصاً لهذه الأدوار فهو الذى لا يخشى فى الحق لومـة لائم وهو الحـارس على

كل القيم النبيلة وعليه مسئولية الوقوف بقوة وجسارة ضد كل محاولات التشويه والردة والمنوط به الحفاظ على تراث الأمة ومعالم شخصيتها المميزة وخصوصية عطائها عبر الأجيال.

إننى أكاد أرى بوضوح أيدى الأدباء والفنانين وهم يقومون برى حديقة الحياة، وتخليصها من الأعشاب الضارة والحشرات والهوام، ومساعدتها على أن تكون أبداً نضرة ومشرقة.

وإذا كان هذا دور الأديب الفنان وهذه سماته، فإن على الأمة أن تفيد من فكره، وتسأله الرأى، وتسعى وراء تأملاته ونظره وأن تتبنى الكثير مما يرى ويقترح، فلم تتقدم الأمم إلا بمشورة الفنانين والكتاب والمفكرين الملهمين المخلصين، ولذلك فإن من واجبها أن توفر لهم كل ما يعينهم على الفكر والإبداع، وتطمئن دائما إلى سبل رعايتهم صحياً واجتماعياً وثقافياً مع وضع آليات متواصلة لتقديرهم وتكريمهم.

هل للأديب والمفكر والفنان حرية مطلقة ؟

نعم ... لهم حرية مطلقة، ولكن السؤال كيف ؟
نقول :

الأديب الحق والفنان الملهم والمفكر المستنير.. أصحاب مواهب وملكات.. ولم يولدوا عبثاً، بل من أجل أدوار ومهام إنسانية جليلة وأنيطت بهم - ربما دون إرادتهم - مسئوليات تنويرية متنوعة ومتجددة، تسعى لازدهار قيم الخير والحق والجمال والحب والحرية.

هذه الرسالة المجيدة التى يتعين على الأديب أو المفكر النهوض بها ونشر ملامحها ودلائلها على ذويه والعالم إن استطاع، تنبع من إرادة كبرى هى التى خلقت وقدرت وزرعت الخلق الموهوبين بعد أن انتهى عصر الأنبياء لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بأوسع معانيه.

أما الأديب ذاته فالمسألة بالنسبة له ذاتية بحتة. فهو فى البداية والنهاية راغب فى التعبير، مؤرق به بعد طول الإطلاع والتأمل والامتلاء بالأفكار والرؤى لابد له من أن يطرح ذلك تعبيراً وإلا انفجر أو مات كمدا أو ركبته الشياطين، وكم من مجنون أو ثائر كان فى الأصل كاتباً ضل الطريق إلى التعبير.

وبعد أن يطرح فكرته وشعوره لا يكتفى بأن تبقى الأوراق حبيسة الأدراج، فقد بزغت المرحلة التالية وهى ضرورة أن يطلع الخلق على هذا التعبير... وهو مؤرق أيضا فى هذه المرحلة بحتمية المشاركة من الآخرين ولامعنى لما عبر دون أن تنظر فيه عيون غيره، ومن هنا يصر الكاتب أو المفكر أو الفنان على رأى المتلقين وتجاربهم، وعلى رأيهم الذى يتنصت عليه ويلتمسه بكل وسيلة، فهو النغمة التى يضبط عليها إيقاع إبداعه، والجماهير هى ملعبه وارضاؤها مطلبه....

ولا يعنى هذا أن يكون خادما لها أو عبدا لأفكارها، وإنما هدفه إرضاؤها من حيث هى جماهير معرفية أو مثالية.... أو ما يجب أن يكون، بدليل إنه لا يحزن أو يأسى إذا غضب عليه البلهاء والغوغاء.... إنه يتوجه إلى جماهير يتمنى أن تكون، لأنه - دون أن يدرى ربما - راغب فى أن يغيرها ويؤثر فيها ويأمل أن تكون أفضل مما يتخيل، ويرجو، وهنا تلتقى الرؤية الإلهية مع الرؤية البشرية أو رؤية أصحاب المواهب الرفيعة.

وما دام الكاتب والفنان والمفكر راغب بالوعى أو باللاوعى.... بالإرادة أو بغيرها فى تشكيل عالم جديد ونبيل يليق بأحلامه وأفكاره، فهو لن يقدم إلا كل ما هو رائع ومستنير وراق ونافع، ومن يفعل غير ذلك فلابد أن يسقط من نظر الشعب ومن عيون المتلقين الأصحاء نفسياً وعقلياً، ومصيره الحتمى ليس غير الازدراء والنسيان.

فالحرية إذن مطلقة للنبلاء فقط وللمستنيرين وأصحاب الرسالات الذين يرون فى الفن إلهاماً لنقل الناس من حالة التخلف إلى التقدم، ومن القيد إلى التحرر، ومن القبح إلى الجمال ومن الباطل إلى الحق ومن البغض إلى الحب والسلام.

▪ الحرية..... كل الحرية لعشاق الحب والجمال.. والخير.. والعدل والحرية.

الثقافة ضحية المثقفين

يجد بعض المثقفين لذة فى أن يسرع بتعليق الفأس فى رقبة الدولة بوصفها التى حطمت كل شئ، ونهجها كان طريق الخسران كلما أثير الغبار القديم الجديد حول أزمة الثقافة المصرية، وتتوالى التصريحات التى تنهى القضية فى نظر البعض، فالحكومة قصرت والوزارة تستدرج الأدباء إلى حظيرتها، والنظام فشل فى توفير مناخ ثقافى صحى، والمؤسسات تتقاعس عن دعم الكتاب والتقدير غائب، والقيادات تهمش المثقفين وتتنكر لأدوارهم، إلى آخر تلك القائمة الطويلة من الصور السلبية التى تصم الأداء الرسمى جميعه.

وربما يدهش القارئ إذا اعترفت له بأن بعض ما ذكر صحيح، فالدولة غير مبرأة تماما من دم الثقافة المصرية المراق، ولا من جناحها المهيض وخاطرها المكسور، كما يتعين الاعتراف أيضا بأن الثقافة المصرية حقا فى أزمة أو على الأقل تمر بنفق شاحب الضوء لا نكاد نرى على هداه معالم الطريق وذلك لأسباب كثيرة فى مقدمتها غيبة قاعدة جماهيرية ونخبة سياسية واعية تدرك جيداً أهمية الثقافة بوصفها الغذاء الحقيقى للعقل والوجدان، وأنها التى تدفع للحرص على القيم النبيلة وتقدير الآخر.

إن الثقافة بإيجاز والتى تتحول من معرفة إلى سلوك هى روح الشعوب وبدونها فالأمة مهما كانت إمكانياتها تغدو مجرد كيان مادى

لاهث ومتناحر، وتصبح الحياة ـ كما هو حاصل الآن إلا قليلا- غير جديرة بأن نحياها.

وإذا كانت أسباب الوضع المتردى كثيرة فالمتهمون بالمئات، ولكننا لا يتعين علينا التسليم بأن الثقافة كالكعبة فى نظر عبد المطلب لها رب يحميها...... إنها ملك خالص وعضوى للمثقفين فهم لها الأهل والسند وأصحاب المصلحة الحقيقية فى عافيتها، بل هم أيضا المسئولون عن عموم الشعب من الناحية الثقافية، هم حراس الذوق والإحساس والوعى والضمير، ورعاة الجمال والإبداع والخيال، وكل أشكال التعبير من الكلمة إلى النغم.ومن الفرشاة إلى لغة الجسد.

وليس يخفى عليهم وعليكم أن الإبداع والفكر لا جدوى منهما دون وسط ثقافى فعال وايجابى يسمح لمنتج الثقافة أن يبدع ويتألق، وللمتلقى أن يقبل ويقيم ويستمع ويتأثر، كما لا أحسبه يخفى عليهم وعليكم أن الدولة كيان سيادى وتنفيذى يعمل على تخصيص الاعتمادات وتوفير الخدمات حسب رؤية المتخصصين فى هذا المجال، ورأت الدولة أن تضع على رأس المؤسسات الثقافية مثقفين يفترض أن يقوموا عليها بما فيه صالح الثقافة، وإذا أخلصوا فسوف نقول شكراً للدولة التى بذلت أقصى جهدها لما فيه خير الثقافة، وإذا استثمر المسئول طاقات هيئته لصالحه وعلاقاته، كما كان يحدث وربما لا يزال، فمن حقنا أن نقول: خانت الدولة الأمانة وتخلت عن أقدس مهامها، ولقد أنفقت الدولة فى العشرين سنة الماضية على الثقافة عدة مليارات من الجنيهات وليس عدة ملايين، ويفترض أن من أنفقها، المثقفون العاملون عليها.

فإذا كان الممول يمول ويرعى ويخدم ويوجه أحيانا ويوفر ما يلزم فلماذا تبدو النتائج هزيلة والآثار باهتة..؟ والأمر لا يخرج عن كونه قعقعة دون طحن... أظننى لا أجانب الصواب كثيرا إذا قلت أن الأمر منوط بالمثقفين بنوعيهم، سواء الحاملين لمسئولية التنفيذ الرسمية أو الآخرين الطلقاء من أصحاب القلم والإبداع والفكر والفن.. ولنا أن نسأل..

ماذا فعل المثقفون وهم يرون السينما المصرية تنهار، وكانت واحدة من أهم المعالم السينمائية العالمية؟ ماذا فعل الفنانون الجادون سواء بأنفسهم كأفراد أو من خلال الجمعيات والمنظمات المدنية؟.. لماذا لم تبزغ في الأفق أي مبادرة لعمل جماعي قوي وملح لوقف نزيف الانهيار ؟

ماذا فعل رؤساء تحرير المجلات التي أوقفها رئيس هيئة الكتاب السابق ؟.. ماذا فعل المثقفون عندما توقف النشر في هيئة قصور الثقافة ؟ ماذا فعل المثقفون عند توقف النشر في هيئة الكتاب إلا من مكتبة الأسرة ؟ ماذا فعل المثقفون إزاء مناهج اللغة والأدب بالمدارس التي تخرج طالبا يكره الثقافة ؟

ماذا فعل المثقفون إزاء توقف النشاط الفني في المدارس وحصة المكتبة ومسابقات القراءة؟ ماذا فعل المثقفون إزاء عقود الإذعان التي تغل أيديهم في معظم المؤسسات ؟ ماذا فعلت المنظمات المدنية والنقابات ومختلف التجمعات إزاء عشرات المشكلات المعوقة للثقافة والمحبطة لأمال المثقفين ؟

على أننا يجب أن نعترف أن البعض كتب رأيه هنا أو هناك وهكذا انتهى الأمر بالنسبة له.. لكن المسألة في الحقيقة تكشف عن أن الإنسان المصري في الغالب غير محارب، ولا يستطيع المثابرة، ويسرع باللجوء إلى الخلاص الفردي وهو في الوقت ذاته يعلم أن الخلاص الفردي لن يحقق تماما ما يريد، لأن الأمال لا تتحقق إلا في ظل مناخ حي ونابض.

والمثقفون فيما أزعم هم الذين يفرطون حرصا على أمزجتهم وأدمغتهم من معارك يرونها غير مجدية، والمعارك لا تحسم إلا بإرادة المحاربين.. إن المثقفين ليسوا فقط مسئولين عن الثقافة ولكن عن كل فكر خاطئ أو سلبي أو رأي متخلف أو قرار مشبوه، أما الحديث المحاصر في تقصير الدولة فكلام العاجزين، والثقافة ضحية المثقفين الذين يتعين عليهم دائما التعاون في رصد الحراك الثقافي، وعليهم أيضا الرقابة والحساب حتى يتحقق ما يليق بهم.

حاضر السينما المصرية

ظلت السينما المصرية منذ بداية ظهورها وحتى أوائل التسعينات أى على مدى يزيد على ستين عاما وجها مشرفا للفن المصرى.. تتوالى جهود عشاقها وتتعدد تضحياتهم من أجل توفير غذاء فنى وفكرى وإنسانى رفيع، والقائمة الطويلة التى تضم أسماءهم تؤكد أن الكل تقريبا حاول بكل إخلاص التعبير عن موهبته وعن رؤيته للفن والحب والجمال، وأيضا دعمه لكل صور الحق والخير ومقاومته للقبح والشر والظلم، وقبل هذا جميعه كانت هناك محاولات مستميتة لتجديد التقنيات وتحصيل العلم وتحسين الخدمة وتطوير ذلك الفن الحديث ليحتضن مختلف التجارب البشرية بأساليب متعددة.

أضحكت وأبكت وأثرت وغسلت نفوسا وطهرت قلوبا، كما وجهت وذكرت وحرضت على الفضيلة وشحذ الفكر وتقوية الإرادة.

لقد حققت السينما المصرية عبر سنواتها الستين مجدا حقيقيا لا يزال الكثيرون يستمتعون به ويجدون فيه الغذاء الفكرى والوجدانى، بل والسعادة، حتى لتتنافس كافة الفضائيات فى إعادة عرض هذه الأفلام عشرات المرات دون أن يملها أحد فهى مهما تدنت تظل ذات رسالة وخفة ظل ورشاقة، وفى حدها الأدنى مشوقة وذات حوار أخاذ.

وقد تنقلت السينما المصرية بين التاريخى والاجتماعى،

والسياسى والنضالى.. التراجيدى والكوميدى.. الواقعى والفانتازى.. الحديث والتراثى وتمثلت روائعها فى مئات الأفلام، منها: اللص والكلاب.. نهر الحب، صراع فى الوادى، الناصر صلاح الدين، غزل البنات، حبيب الروح، رد قلبى، جميلة بوحريد، غروب وشروق، شارع الحب، الخطايا، دعاء الكروان، الرباط المقدس، الأيدى الناعمة، لعبة الست، المرأة المجهولة، العزيمة، الزوجة الثانية، الخرساء، شىء من الخوف، أنا حرة، أبناء الصمت، ليل وقضبان، شباب امرأة، أم العروسة، الجراج، ميرامار، الفتوة، المصير، رصيف نمرة خمسة، الأرض، القاهرة ٣٠، بداية ونهاية، سواق الأتوبيس. العار.. صراع الأبطال ,وغيرها بما لا يتسع المجال لذكرها أو حصرها.

وقد كتب هذه الأفلام مؤلفون كبار لهم إبداعاتهم المرموقة وحضورهم الفكرى الناصع من أمثال نجيب محفوظ وإحسان وعبد الحليم عبد الله والسحار والسباعى وأمين يوسف غراب وسعد وهبه والشرقاوى وغيرهم.

أما اليوم وعلى مدى خمس عشرة سنة فإن الفن السابع الجميل معبود الجماهير قد أصابه الابتذال فجأة واستدرجته أحلام الباحثين عن الأموال لا الطامحين إلى ذرى المجد.. يتولاه الآن كوكبة من المؤهلين جيدا لتوجيه المزيد من الطعنات للوطن المكلوم والمجتمع المأزوم.

تنازلت السينما فجأة عن أى رسالة جادة وهدف نبيل ومحاولة للارتقاء بالذوق والإحساس، ومضت فى تعجل واندفاع نحو السوقية والخلاعة والترخص والسطحية والاستمتاع بعرض نماذج الجهل والدونية والجبن والقبح والسفالة، والتأكيد على أنهم الأبطال والقدوة أو على الأقل هى الأنماط السائدة فى المجتمع وهى التى يتعين التعبير عنها وعن قاموسها الذى يتخصص فى ابتكاره خريجو الأوكار والغرز، ورواد الحانات والمواقع الساقطة.

ويعلن بكل فخر أصحاب هذه السينما المشبوهة إنهم قد تخلوا تماما عن كل القضايا الكبرى والإنسانية، والقيم والمقاومة وإنقاذ

الإنســان من أزمــاته، وليـسـوا مـعنيـين بإضـاءة الطريق ولا حـتى المحافظة على الأخلاق.

ها هو البطل لا يكف عن هز مؤخرته بشكل داعر ومقزز، والثانى يسخر من المناضلين وكبار الفنانين، والثالث لا يجيد أى شئ إلا أن يتجرع الخمر ويطلع علينا بابتكاراته المتمثلة فى تعبيرات سخيفة لتهلل له الجماهير البسيطة التى أنهكتها الحياة وظروف العيش وغلاء الأسعار والبيروقراطية وتحكم السادة وسوء الخدمات، ويصبحون صيداً سهلاً لهذه السينما التى تركز على التافهين والضائعين الذين لا يتمتع أحدهم بأى إرادة أو حمية أو فكر...

ولا نستطيع فى هذه السطور إشفاقاً عليها ذكر أسماء كتاب هذه الأفلام ويكفى استعراض بعض عناوينها.. اللمبى. عوكل. بوحة. حاحة وتفاحة. الجمبلاطى. وش إجرام. التوربينى. ظاظا رئيس جمهورية. رئيس آخر شقاوة. تتح.. الندلة. عبده مواسم.على الطرب بالتلاتة.. أفلام يصدق عليها ما يقال لأحمد إبراهيم المقيم بدير النحاس.. الدواء فيه سم قاتل..

لقد أصبحت السينما المصرية هى البديل الشرعى لتجارة المخدرات وتقوم بنفس الدور وتدمر الشباب وتملأ خزائن أصحابها بالملايين، والدولة تشارك فى المشهد بالصمت المريب ولا يملك أحد ولا يجسر على مطاردة مرتكبيها.

لقد اعتاد الشعب والمثقفون فى مقدمة شرائحه أن يستسلم لما يراد له وأن يطيل التأمل وأن ينتظر وينتظر وعندما يتأهب للعمل والتغيير يكون كل شئ قد أصبح واقعا وراسخاً ومستقرا ومن الصعب تغييره.

الكل متواطئ ومشترك فى المأساة، وإن كان من الواجب ألا نتنكر لبعض الأفلام الجيدة التى أطلت برأسها على استحياء وسط هذا الغثاء الذى لا يدرك الكثيرون خطورته فى تسطيح الفكر والترويج لروح الانهزامية والتحريض على التفاهة والسخافة، وافتقاد الطريق الصحيح للتعامل مع العصر والتواصل مع المستجدات، فضلا عن كيفية مواجهة التحديات التى تتعاظم كل يوم.. ونحن نستعد لها بشباب مسطول ومغيب.

المثقفون بحاجة إلى ميثاق شرف

من حق المثقفين أن يختلفوا، بل من الطبيعى أن يختلفوا. ومن حقهم أن يتبارزوا بالأفكار لا أن يتنابذوا بالأظفار والأحجار... من حقهم أن يثوروا ضد كل قبيح من القول والفعل وضد كل تهاون فى حماية موروثات الأمة ومكتسباتها، ومن حقهم أن يتحفظوا على كل قرار أو إجراء يمس شرف الكلمة ومساحة الحرية وحقوق الإنسان، ومن حق كل منهم الانتصار لفكرته وأن يحميها من محاولات النيل منها، إلا إذا ثبت خطأها. أو النيل من الوطن وقيمه وغاياته ومنظومة العمل الجاد نحو التقدم التى ينضوى تحت خيمتها الكثيرون من العاملين المخلصين والشرفاء.

كل ذلك حق مكفول تعترف به وتقره كل الدساتير والقوانين والمؤسسات الرسمية والشعبية على أن يكون فى الإطار السامى والنبيل الذى يحفظ للنخبة والطليعة وجوهها المشرقة ودورها الرائد والمؤثر الذى يعتد به أيما اعتداد.

لكن ظاهرة تسرى الآن وتستفحل، تكشف بما لا يدع مجالا للشك أن ثمة حقائق وأمورا تغيب عن منتجى الثقافة من رجال الفكر والصحافة والأدب والفن..

ظاهرة مزعجة للغاية تطل برأسها فى توقيت غير ملائم إذ تحدق بالوطن التحديات، وتكتنف الأمة العديد من المشكلات فى

الداخل والخـارج مما يسـتلزم روحـا وخطاباً يتـسق والظروف الدقيـقـة التى تهدد آمالنا فى غد أفضل، يوفر للجماهيـر قدوة مرموقة جديرة بأن تحتذى.

بعض المثقفـين يمكن أن يغفلوا عن هذه النقطة لكن الواجب يحـتم ألا يتـجـاهلوا نظرات الناس إليـهم، لأن المثـقف بوصـفـه شـخصـيـة عـامـة ليس ملكا لنفسـه، أو لأهله فـقط، بل هـو وفكره ورؤاه وسلوكه ملك لجماهيـره.. عليه أن يحسـب حسابها ويتوقع غضبها ورضاها ولا يعنى هذا أن يأتى تفكيره مثلها، أو يكبح جماح موهبته ليفصلها على قدها، بل عليه أن يخرج فى فكره عن السائد والعـادى، وأن يطلق ملكات وأدوات مـوهبـتـه وخـيـاله لدفع دمـاء جـديدة فى الرؤى السـائدة، وللإمسـاك بالأحـلام والطمـوحـات المجنحـة.. لابد أن يشـارك فى التـجـديد والتطوير برهافـة حس وجسارة فكر، لا بكسر منظومة القيم وضرب الثوابت ولا بالتسيب باسم الانفتـاح والتـحـرر... وليس بالسب إذا مسـتـه شبـهـة إهانة وليس بالمحاكم إذا ناله بعض رذاذ الكلمات الطائشة أو النابعة من نفس متوترة أو يائسة.

هناك أحيانا من يطلق العبارات الثقيلة بلا مبرر أو تثبت من الحقائق، وهناك من يرد بفجـاجـة واستفزاز، وهنـاك سوء الظن، وفى أحيانا كثيرة تعجل بالهجوم وإثارة للخصومة، وهناك مبالغات فى الاتهام والتشكيك وحالات غضب واستعداء، فضـلا عن ازدراء أو تجاهل لذوى المكانة والوزن والعطاء لمجرد الاخـتـلاف فى الرأى أو التوجه السياسى والميول الثقافية، وهناك الوقوع المقيت فى أسر العلاقات الشخصية بما يصم بعض الكتابات المتحيزة، وهناك قبل هذا وذاك ابتـذال فى المعالجـات الفنيـة وتعريض بالأعـلام وترويج للأفكار السطحية والعروض التافهة والأغانى الهابطة وتسابق فى الترخص والخلاعة.. وتتعدد وتتجدد صور الانحدار الذى يتطلب وقفة.

لذلك أتصور وجود ميثاق شرف للمثقفين، مثل قسم الأطباء

والقضاة وغيرهم، ميثاق شرف معنوى غير مكتوب ولا مقروء لكنه كامن فى الضمير، مستقر فى الوجدان، قابع فى العقل والروح ينظر من خلاله المثقفون إلى كل الأمور.

ميثاق شرف يطامن من غلواء المستنفر، ويؤكد القيم ويدفع الحنق ويدعو للوحدة والترابط، ويحرك كل النفوس نحو الانسجام والتلاحم بصرف النظر عن التباين الفكرى، والارتفاع قدر الطاقة عن الأغراض الشخصية والتضخم الذاتى.

إن ثمة رسالة ملقاة على عاتق منتجى الثقافة، فهم لم يولدوا عبثا ولا يتعين عليهم أن يتصوروا ذلك، فهم خلقوا خصيصا من أجل إشاعة الجمال ومناصرة الحرية، ومن أجل عودة الحق وانتشار الخير ومن أجل أن يعم السلام، وهم دعاة الحوار المتحضر وممارسوه، ولهم مع ذلك حق الاختلاف، وهم معلمو الشباب احترام الآخر، إلى أقصى حد مهما كان هذا الآخر، حتى لو كان كرسيا أو شجرة أو نملة، أو أسفلت الطريق.

إن المثقف مؤهل وعليه أن يحاول إذا لم يكن كذلك السمو عن الدنايا والعروض والكتابات الرخيصة والمسفة، وعليه مؤازرة التوجه نحو المعنويات قبل الإقبال على الماديات وهو سواء أراد أم لم يرد عاشق لوطنه، مقاوم لكل ما يحاول رده إلى الوراء، ومن ثم الانتماء إلى الأصيل والنبيل أينما كان، حريص على العدل والنضال من أجل التقدم، ومن أجل إنقاذ البشرية مما يحيق بها من ظلم وقهر وفقر وحصار وما ينزل بالبعض من معاناة ومكابدة، وما يلحق بعضهم من التهميش والتحقير،

كما انه مطالب بألا يتعنت مع مخالفيه ولا أن يستمرئ اللدد فى الخصومة، إذ لا يستقيم ذلك مع طبيعة المثقف الذى خلق ليكون عمله مكملا لدور النبى، وفى أعماقه نفحة من نفحات الأنبياء بوصفة أبا للبشر أو أخا أكبر، يحنو عليهم ويرحمهم، ويحمل المصابيح المضيئة لهم فى الظلمة الحالكة.. ماشيا بينهم بالمحبة والإحسان والتسامح والتواضع، متجها دائما بعمله وسلوكه

نحو ما هو أرقى وأسمى وأنفع.

وإذا كان من تحصيل الحاصل القول بأن الثقافة هى التى تجعل الحياة جديرة بأن نحياها فإن البداية بالقطع تكون فى سلوك المثقفين أنفسهم، مع اعترافى وثقتى بأن العبرة بالنشأة الاجتماعية والطبيعة النفسية.. فالإنسان نادرًا ما يتغير كثيرا عما كان عليه فى صباه وما حصله من طباع وما ورثه من خلال.. أغلب الأمر أن تأثير الوراثة والتربية والثقافة المبكرة والظروف المعيشية والعقد وعلاقات الوالدين والأقربين تنفذ داخل الجلد ولا تتوقف عند الملامح، بل تمضى إلى الروح والعقل والوجدان، أما التعليم فتأثيره أقل.. لأن الإنسان فى العادة ابن السنوات الأولى بكل ما فيها.. وبالرغم من ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن الانتساب لجماعة منتجى الثقافة يحتم سلوكا خاصا حتى لو كان مكتسبا.. فهل نحن حقا فى حاجة إلى ميثاق شرف للمثقفين ؟ يحميهم.. أولا منهم، ثم يحمى منهم الآخرين بأن يذكرهم برسالة الأنبياء المنقوشة فى صدورهم؟.

كوابح الازدهار الثقافى

الأدب نموذجاً

أحسب أن الراصدين للمشهد الثقافى فى مجمل تجلياته عبر السنوات الأخيرة يجمعون على أن الإبداع لا يكف عن إثمار الجديد المتألق اللافت فى مختلف أجناس الأدب، إذ تتوالى الإصدارات المميزة على مستوى الشكل والمضمون، وتبهرنا كثير من الأعمال بتقنياتها السردية ومعمارها الجديد ورؤيتها الناضجة، ولغتها المجنحة، بما يدل دلالة مبينة على الوهج الابداعى المتجدد، تصب فى نهره المتدفق أجيال متعددة لا تشغلها المشاغل عن صوغ الأفكار واحتضان الإلهام و طرح ما تختزنه المشاعر الموارة بأحلام التعبير.

تطالعنا المطابع ليل نهار بالمغامرات الشكلية ونبضات الجسارة الموضوعية وشتى صور الجيشان الفنى معبرة عن بؤرة الاحتقان الانسانى،تخرج المطابع الساهرة أرغفة رائعة وساخنة بحرارة الفكر ولواعج الشوق المعتق للوجود، مستخرجة من بوتقة الابداع محاولات لا نهائية لالتقاط صورة العالم على مرايا العقل والروح، ومن أعماق الوجدان ذوبان الخاص فى العام وصياغته فى نسيج ادبى ملهم يعمق من قيم الحق والخير والجمال، ويرفع طبقات الوعى إلى ذرى القدرة على مقاومة القبح والقهر والظلم والحرمان.

كم هورائع ما يفيض على الأرض العربية من إبداع متدفق ونبيل

لا ينقصه ليعتلى مكانته اللائقة إلا القليل من العقبات، وأقول القليل لأن وفرة المواهب هى الأهم والأجدر بالفرح.

ولكى تقترب هذه الورقة من كوابح الازدهار نشير إلى بدهية لا بأس من ذكرها لأن تاملها يسهم فى توضيح الصورة وأبعادها.

أن الدائرة الثقافية لكى تكتمل وتحقق أغراضها من المنبع إلى المصب خاصة فى مجال الكتاب عامة، والأدبى منه بشكل خاص،تتكون من ستة عناصر هى :

١-التأليف. ٢-النشر ٣-الإعلام.

٤-النقد. ٥-التلقى.

٦- المناخ، ونقصد به الوسط الذى تتحرك فيه العناصر الخمسة السابقة.

وفى إطار هذه العناصر يمكننا التوقف عند بعض العوائق التى تحول دون تحقيق الازدهار الأدبى المأمول، أو الذى يتعين بلوغه بوصفه نتيجة طبيعية لأحوال الإبداع العربى المتفجر،ويجرى ترتيب العوائق حسب حظها من الأهمية والتأثير.

أولا - غياب النقد :

النقد صنو الإبداع وهو الوجه الآخر لعملة الأدب، ولا غنى للإبداع عن النقد، والإبداع لا يحيط بالنقد، ولكن النقد يمكن أن يحيط بالإبداع فيسبقه ويلحقه ويشمله عبر كل مراحله بعيون تطلق نظراتها ولو من بعد.

النقد عالم فكرى وعلمى تحليلى، وآلة ثقافية مهمة تنهض بدور كبير لتصحيح مسار الحركة الثقافية، وفرز مفرداتها وحراسة مكتسباتها وتشجيع شبابها وصقل مواهبهم وإلقاء الأضواء والإشارة بابتهاج وحماس إلى الدرر الملهمة فى الإبداع الجديد،لكن الساحة المصرية وربما العربية أيضا خلت أو أوشكت، من الممارسات النقدية الرصينة التى تضبط مختلف النغمات وتنسق بين أطراف المنظومة الثقافية وتحدد ملامحها وأهم بؤرها الفاعلة.

لقد ابتلعت الجامعات من يمارسون النقد من الأساتذة،وحذت الصحافة حذوها فاستأثرت بفكر أبنائها من النقاد، وتوقف أو كاد نشاطهم واتسعت الشقة بينهم وبين ما يصدر من شعر ورواية وقصة قصيرة ومسرحية ورحل البعض إلى خارج البلاد، واستولى اليأس على فريق، والتفت دوامات الحيرة حول فريق لا يدرى أين ينشر، وما جزاؤه إذا نشر ؟ فضلا عن انزعاج بعض الأدباء من أراء النقاد السلبية فى أعمالهم وممارسة ضغوط ضدهم تؤثر على حماستهم.

وهكذا يقف الإبداع وحده فى الساحة غير غافل عن كونه أصبح يتيما فى غيبة أهله من النقاد..فمن يحس به ويفهمه ويسعى إليه ؟ ومن يفسر ويشير إلى أسرار الجمال الأدبى، ومن يفض مغاليق النصوص ويكشف الأعماق ويدل على مفاتيح الفن، أو يحدد منابعه الإلهامية أو رؤاه الاستشرافية.

إن الإبداع محصول لا غنى للحياة عنه، أخرجته الأرض الخصيبة وبقى مكدسا على حواف الحقول والقنوات لا يشتريه مستهلك ولا يقبل عليه تاجر ولا يعيره أحد بعض التفات.

إن غياب النقد على النحو السابق الإشارة إليه أمر يستأهل الاستنفار الجاد والمخلص، لأنه يفضى إلى الركود والذبول ويضرب الحياة الثقافية فى مقتل ويضر بها أيما ضرر.

ثانيا - الإعلام ضد الموضوعية والعلم :

الإعلام.. نافذة الهواء والأضواء.. وسواء كانت الوسيلة الإعلامية فى شكل مطبوع أو مذاع، فهى الناقلة الأولى والأساسية للمعلومة عن الكاتب والكتاب والناقد ونقده، والنوافذ الإعلامية ليست كالنقد غائبة، ولكنها حاضرة حضورا أعمى، وتوصيلها فى الأغلب ردئ، فهى إما أن تتجاهل ما يصدر أو تشير إليه على نحو مهين، أو تكيل له المديح وهو هزيل، أو تذكره على عجل كأنه من قبيل الكفر أو سد الخانة، وفى العادة يتم ذلك الأمر مجاملة لبعض الأصدقاء أو تخلصا من الملحين.

كثير من الصحف لا يعرف محرروها وخاصة فى الصفحات الثقافية، أقدار الأدباء، وقد يصدر عنهم ما يشى بعكس هذه الأقدار.

إن هيمنة الطبيعة الشخصية لمحررى الصفحات الثقافية تسهم كثيرا فى الإساءة إلى الحركة الأدبية، فعلاقاتهم هى الأصل فى تحديد الذى ينشر والذى يهمل، وكم من صفحات خصصت لكتب ليس لها من قيمة تعادل ثمن ورقها وكم من كتب جادة وعميقة غضت الطرف عنها.

لقد بات واضحا - لى على الأقل - أن معظم رجال الإعلام ومن ينتمون منهم للأدب خاصة يفتقدون الموضوعية، ويديرون معاركهم من خلال ما يتولون الإشراف عليه من صحف وصفحات... الأمر الذى يفضى إلى إصابة الكثير من الكتاب بالأسى والكمد، وقد يكتفى المحررون بالفضائح واستدراج الكتاب إلى شراك لا تثمر إلا اندلاع الخصومات ومنهم من يقوم بالوقيعة عن قصدٍ ولو باستبدال بعض الكلمات، وسحقا للحقيقة.

والصفحات المتخصصة فى الثقافة تمثل أحد أسباب تراجع النقد فلم تعد تتيح أدنى مساحة لنقد الأعمال الأدبية على اعتبار أهمية تبنيها لسد النقص فى خريطة الحركة الثقافية، ولكن الأهم نشر مقال المشرف حتى لو كان ساذجا ومملا أو نشر مقالات الأحباب.

أما محررو الصحف غير المتخصصة والتليفزيون فيحتفلون بفتاة الكومبارس ويخرجون عن بكرة أبيهم بالكاميرات لرصد لفحة برد أصابت الممثلة الواعدة التى ظهرت مرات بعودها الملفوف صامتة، وهى تفتح الباب أو تقدم الشراب، ولا يعيرون إلا بأدنى إشارة كتابا مهما أنفق فيه صاحبه السنوات، وليس مما يلفت أنظارهم أن يحصل كاتب على جائزة مميزة،ولا أن يحصل باحث قدير على درجة الدكتوراه فى موضوع جديد، ويمكن أن تفرد الصفحات لمثل ذلك إذا كان الكاتب من أبناء الجريدة أو من

الأحباب. ومجمل القول إن الإعلام بحاجة إلى توجيهات سيادية واضحة بضرورة احتضان الأدب بوصفه نجم الثقافة الأول.

ثالثا- تراجع القراءة :

يمكن القول دون أدنى مبالغة أن الإبداع الأدبي والثقافى بعامة لا قيمة له إذا لم تستقبله قاعدة عريضة من المتلقين فى الحاضر والمستقبل، فأى فعل مهما كان ضئيلا يقوم على علاقة وثيقة بين طرفين، مرسل ومستقبل، ويؤثر بالسلب كثيرا هذا التراجع الملموس فى عدد القراء أو تحول عدد كبير عن الكتاب الأدبى إلى مطالعة ما يصدر فى مجالات قد لا يفيد معظمها فى تشكيل وعى فكرى وجمالى أو إنسانى.

ومن الأمور الطبيعية والمنطقية أو على الأصح المجدية والمؤثرة فى صياغة عقل ووجدان الإنسان أن يكون الأدب فى مقدمة ما يقرأه المتعلمون، بل أزعم إن قراءة الأدب يجب أن تكون دائمة وثابتة ومحل اهتمام أكثر الناس حتى لو كانت ميولهم سياسية أو رياضية أو فنية أو حتى بلا ميول.

-ومن أسباب اختلال القاعدة القرائية ما يلى :

١-سوء توزيع الكتاب :

لكى يكون هناك قارىء لا بد أن يكون هناك كتاب بالقرب منه أو يعرف الطريق إليه،وهذا ما لا يحدث فى أغلب الأحوال، إذ تواجه الكتاب المطبوع عقبات كثيرة، فالمكتبات العامة قليلة، ومثلها منافذ بيع الكتب، والخريطة التى تغطيها تلك المنافذ محدودة أو قاصرة عن بلوغ كل المواقع، فمعظم المواقع بالقاهرة أو الإسكندرية وبعض المحافظات الكبرى، وكثير من محافظات مصر محرومة من الكتاب.

٢-الظروف الاقتصادية والاجتماعية:

دخل المصريين محدود وقاصر عن تلبية الحاجات الضرورية التى لا يحتسب من بينها شراء الكتب، والمصريون فى الأغلب

منسحقون تحت عجلات الأحوال الاجتماعية وبعضها معقد، وهم فى حالة لهاث غير طبيعى لا يسمح بقضاء وقت مع هواية محببة.

٣-غلاء أسعار الكتب.

٤-قلة منابر الإعلان عن الكتب :

لأن المساحات بالصحف متاحة فقط للإعلانات المدفوعة، وليس بخاف على أحد أن كل سلعة مهما كانت جذابة ومطلوبة فهى بحاجة إلى الإعلان عنها، والناشرون عامة لا يخصصون نسبة معقولة ضمن تكلفة الكتاب للإنفاق على الإعلان .

٥-منظومة التعليم بكاملها لا تساعد على تخريج قراء:

فالمناهج تنفر الطلاب من اللغة العربية والأدب ولا يتوفر أدنى اهتمام بالمكتبة ولا توجد أى مسابقات للقراءة،وليس ثم تحمس للمجلات المصورة أو الحائط،والأنشطة عامة تكاد تكون منعدمة، وكانت المدارس طوال تاريخها، على الأقل خلال ثلاثة أرباع القرن العشرين، هى صانعة القارىء التى تفتح له آفاق المعرفة وتشحذ لديه أدوات الإطلاع وحوافزه.

٦-الحصار التليفزيونى :

ذلك الذى يلتهم أية مساحة من وقت فراغ لدى المواطنين بفضل مئات القنوات التى تجتهد بجنون كى تستولى على الأذهان والعيون، والإنسان العربى مستسلم لها تماما، منجذب إلى مختلف أشكال الإبهار والفتنة.

٧-عجز المؤسسات الرسمية والمدنية :

يبدو جليا عجز هذه المؤسسات عن القيام بدور فاعل فى تشجيع المواطنين على القراءة، خاصة هيئة قصور الثقافة التى تتحدد رسالتها أساسا فى تثقيف أفراد الشعب، والمصدر الأول فى هذه المهمة هو القراءة، ولا تقوم هذه الهيئة برغم ضخامة

الاعـتـمـادات بدور واضح فى هذا المجـال، وضـعـيف جـدا دور المنظمات المدنية فى جذب الشباب للقراءة، كما أن مراكز الشباب لا تولى أية أهمية لمختلف الجوانب الثقافية.

رابعا- الحرية :

يعد هامش الحرية المتاح للأديب والناقد أقل مما يتعين توفره لمناخ إبداعى صحى قادر على الابتكار والتجديد وتقليب الحياة الثقافية كما انه يعوق طرح الكثير من الرؤى والأفكار.

خامسا- القيادات ضد الثقافة :

بقراءة مدققة لتجربة الشعوب التى تقدمت، والشعوب التى تعتزم بحماس وإخلاص أن تأخذ بأسباب التقدم، سنلحظ أن القيادات على مختلف مستوياتها تعشق الثقافة وتعى جيدا دورها وتأثيرها فى خلق إنسان واع ورشيد ومنتج يستطيع ان يضاعف من مساحة الآفاق المتاحة برؤاه المستنيرة، لذلك فهى ترعى وتشجع وتدعم الثقافة وتكرم وتقدر المثقفين، وتذلل كل العقبات التى يمكن أن تقيد حركة الإبداع وحريته.

أما القيادات لدينا فمعظمهم من أبناء جوبلز الذى كان يتحسس مسدسه كلما سمع بكلمة ثقافة،ولدينا من المسئولين من يتخوفون من أى لقاء بالمثقفين، وبعضهم قد يعانى من الإحساس بـ(الأرتكاريا)، وهو مرض يسبب الرغبة فى حك البدن (الهرش).

الفائزون بجوائز الدولة فى مصر ربما ينتظرون سنوات طويلة حتى يلتقى بهم الرئيس ويسلمهم الأوسمة المستحقة، فى حين انه وغيره من القيادات يسرعون بالذهاب لاستقبال لاعب فاز فى مسابقة أو للترحيب بلاعبى الكرة إذا فازوا بكأس أو بدورة اولمبية كما أن المثقف فى بلادنا ليس مرجعية على أى نحو للمسئولين، ولا يحرصون على معرفة رأيه أو استطلاع فكره، لأنه لابد سيختلف معهم ويرى غير ما يرون وما يدبرون، وهذا أحد أهم أسباب تخلفنا.

وليس من شك أن الشعوب المتخلفة على دين ملوكها، فإذا ذكر الرئيس اسم كاتب فسوف يصبح خلال ساعات نجما، وما دامت القيادات لا تذكر أحدا فلا أحد يمكن أن يهتم بأحد، وهكذا يترسخ أن الكاتب بلا أهمية،فهو فى نظرهم إما مزعج أو بلا قيمة، ولا مانع أن تذكر الخطب الاحتفالية جدوى الثقافة.

سادسا - إهمال الترجمة :

أقصد هنا ترجمة الأدب العربى إلى اللغات الأجنبية، فالترجمة منذ قرون عديدة غدت مجدا للأمم وليس للأدباء أصحاب النصوص فقط، ويعلم الجميع أن دول أمريكا اللاتينية بلغت شهرتها الثقافية أنحاء مختلفة من العالم بعد أن توالت ترجمة إبداعات بنيها،فأحدث ذلك ازدهارا وفتح الأبواب أمام الأجيال التالية، وأحيا الأمل لدى كل موهوب وطمأنه على مستقبله فى حال اجتهاده ورعاية موهبته بالتحصيل الثقافى وإطلاق أحصنة خياله.

لقد كنت أتصور بعد تصاعد المد الإبداعى فى كل الدول العربية تقريبا أن تخصص الدولة ميزانيات لترجمة أفضل النصوص وطبعها ورعايتها إعلاميا ونقديا، فتصدير الأدب مجد حقيقى أرفع بكثير من تصدير البطاطس والضفادع.

سابعا-البيروقراطية :

فى مصر هناك أخطبوط ضخم تمتد أياديه وأطرافه وهى بالملايين إلى كل مكان لتقبض على كل شىء وتخنقه، ولا ينجو من ذلك الأدب بكل آلياته ومفرداته من نشر وطبع وتوزيع ومسابقات وجوائز ومكافآت، عقبات متراكمة لا تخلف إلا اليأس والخمول واللجوء الى الأرصفة والحانات حيث تضع هناك القلوب المحطمة الأوجاع على الأوجاع، ويتعاون الجميع لبناء جدار هائل من الثقة

الضائعة والأفكار المهدرة.

ثامنا-إهمال الدراما للأدب :

قفز عدد كبير من كتاب السيناريو إلى السينما والتليفزيون وتولوا إعداد منظومة التأليف كاملة من القصة والسيناريو إلى الحوار، وأقنعوا المنتجين والمخرجين بذلك اعتمادا على فكرة التيسير،إذ التعامل مع واحد أفضل من اثنين، وتخفيضا للنفقات، فضلا عن أن الأديب مفكر ولديه فى العادة ذات متضخمة وربما يتعالى على الجميع ويفرض شروطا صعبة.

وهكذا خسرت السينما والأدب معا عندما تجنبت القنوات الدرامية النهل من معين الأدب الصافى وتصور.الكثيرون من رجال السينما والتليفزيون أن تأليف القصة مهمة سهلة على الفرد أو الجماعة أو الشلة، ونسى هؤلاء الرجال أن الرواية أو القصة ليست هى فقط الحدوتة، لكنها تتضمن أبعادا فكرية ونفسية وإنسانية وجمالية، كما تتضمن اللغة والفن والجمال والخيال، وكل ما يتسم به العمل الأدبى من رؤية تتجاوز كثيرا أحداثه، وما زالت المقارنة لصالح الأدب، فأروع الأفلام فى تاريخ السينما العربية والعالمية هو ما تم استلهامه من نصوص أدبية، وليس من شك أن السينما والتليفزيون يحققان شهرة لهذه النصوص واستدراجا لقراءتها.

إن الإبداع الأدبى وما يراق على جوانبه من الدم ونور العيون والأعصاب والأعمار لا يحقق المنتظر منه، وإذا كانت الأمال كبيرة فان العقبات أكبر، وإذا كانت الطموحات عالية فإن الكوابح التى تحول دون تحقيق ازدهار ثقافى مرموق أعلى، والكل مسئول عن تصحيح الأوضاع، ومحاولة إنتاج وتشكيل صورة جديدة تماثل الحقيقة أو على الأقل تقترب منها،فهل تتضافر الجهود لتقصر المسافة بين المقدمات والنتائج؟!

طوفان التفاهة

لا أدرى كيف لا يلفت النظر هذا الطوفان الهائل من التفاهة والسطحية الذى يغمر كل الصحف تقريبا ومحطات التليفزيون التى يتغلغل فيها عصر الصورة، وقد رحم الله منها الإذاعة ؟

لا أدرى كيف لا ينتبه المثقفون الذين يعيشون فترة حرجة من فترات التاريخ الثقافي، إذ تراجعت فيه إلى حد كبير نسبة الأوكسجين التى يجب توفرها لاستنشاق عبير الفكر وعطر الفن وبوح الإبداع ؟

إن الوسط المتاح الآن والذى يتعين أن يكون صالحا لإنضاج الوعى ومؤهلا لتلاقح الأفكار واندلاع الرؤى الملهمة وانفتاح المنابر الرصينة والجادة لمعانقة تفجيرات الابداع فى شتى الأجناس الأدبية والفنية،يعانى من تلوث بشع وصخب وضوضاء وجعجعة.. لهاث وتخبط، ومزدحم بالراكضين نحو الشهرة المزيفة والمكاسب والمجد الموهوم فى محاولة مشبوهة للاستيلاء على الذاكرة، وازاحة كل ما هو أصيل ومجيد ومنتج للرفيع من الفنون.

كل الصحف الآن ومحطات التليفزيون المصرى،خاصة الحكومى غارقة فى عراك الممثلين وأخبارهم التافهة، وإنتاجهم المتواضع،بل المبتذل والمتدنى فى أغلب الأحوال.

لقد غدت كل المنابر ساحة مستباحة للأصفار كى يستعرضون تأوهاتهم وآمالهم وتجاربهم الخاوية.. كل المساحات للمطربين والممثلين يصولون ويجولون، حيث تترى الأعمدة والزوايا والمانشيتات بأخبار معاركهم وزواجهم وطلاقهم ورحلاتهم وأدوارهم فى المسلسلات والأفلام، فضلا عن الإعلانات والحوارات... بل هم نجوم السياسة والفكر ومعارض الفن التشكيلى وأنشطة المرأة والطفل والمباريات وهم مادة المسابقات.

غدا الممثلون والمطربون محور حياتنا وبؤرة أحلام الشباب من فرط التفاهة التى تدفع المنابر المختلفة للتركيز على حيواتهم التى يصل بعضها إلى حد التعفن، وسلوكياتهم أحيانا إلى حدود التدنى والترخص.

أفيقوا أيها المثقفون.. يا حراس هذه الأمة الحقيقيين.. أخرجوا من عزلتكم الإرادية ومنفاكم الاختيارى وتأملوا هذا الكيان الهلامى الهش الذى يشارك عدد لا يدركه الحصر فى دعمه ونشره وازدهاره.

إنها الرمال المتحركة التى تجر البلاد والعباد إلى أسوأ الدروب التى لا تفضى إلا إلى التيه والضياع والبلاهة، بينما العالم كما تعلمون يمسك بزمام العلم والعقل والعمل والقيم الايجابية... تأملوا الموقف المتردى الذى يتم فيه إنتاج أفلام ومسلسلات تافهة ومنحلة ثم نسعى جميعا للترويج لها ورفع مرتكبيها فوق الرؤوس، ليس فقط مرتكبوها،ولكن من يكتب عن الممثلين والمطربين أصبح نجما،ومن يقدمهم فى المحطات بات نجما كبيرا وشخصية مرموقة تدعوه نوادى الروتارى والليونز، بل يجلس أمامه فى خشوع رؤساء الجامعات والأساتذة وينحنى له المحافظون وغير المحافظين.

حياة عجيبة استولت على هذه الأمة وتصدرت المشهد بكامله وأزاحت الجميع حتى رجال السياسة والفكر والعلم، ولنا أن نتخيل إذا قررت ليلى علوى أن تقوم بزيارة لمجلس الشعب، سوف تتحرك جميع وسائل الإعلام لرصد الحدث التاريخى

الذى يفوق دخول هتلر بولندا أو النمسا.. ويا ويله الصحفى الذى لم يكن لديه علم بالخبر.

لا أظن أننى بحاجة إلى توضيح موقفى من الفن، فهو روح الحياة وسر من أسرار تقدمها،وهو غذاء العقل والوجدان، والتعبير الجمالى الرائع عن أوجاع الإنسان وأحلامه وعذاباته الصغيرة والكبيرة ولا يمكن تصور الحياة بلا فن، ولكننى أتحدث عن الفن الرفيع، وكلمة الفن لا تعنى إلا الفن الرفيع، بللورة الجمال التى تلهم الفكر والفن والحب والارتقاء بالبشر،ولا أقصد طبعا أشياء من قبيل(اللمبى وعوكل وحاحا) وغيرها.

الخروق كثيرة والأوجاع،ولا ندرى من أين نبدأ.. لكن الأوفق والأفضل أن يتولى كل فريق درس تخصصه، والمثقفون مسئولون بالصمت المتواطئ عما يجرى من عمليات غسيل لمخ هذا الشعب ليصبح بلاعقل ولا هوية ولا طريق بل ولا كرامة.

علينا أن نتأمل الآن وقبل الآن أحوال المواطن المصرى وموقفه الملتبس، وقد رأى نفسه محاصرا بالظروف الاقتصادية التعسة، ومحاطا تماما بأخبار الممثلين والمطربين وعليه أيضا أن يترك عمله أو مقهاه الذى يقضى فيه فترة بطالته ليتظاهر من أجل خروج مطرب زور شهادة الجندية وتبكى لأجله صحف مشبوهة..

إننا نعبث فى الوقت الذى يجد فيه الآخرون، حتى الشعوب المتخلفة تجاوزتنا، لأننا طيلة النهار والليل نشاهد الممثلين ونقرأ أخبارهم ونتداولها ونحفظها وقد نتعارك حولها، ولا غرابة أن نسمع عن مجنون يسرا وعادل ونور والذى يود أن يسرق فنانة للشهرة فقط وليس للمال.

لوثة أصابت الجميع واستدرجتهم إلى الطريق الذى يؤدى إلى المجهول،بل الحقيقة انه يؤدى إلى المعلوم.. المعلوم جدا.. ونحن نعيش هذا المعلوم هذه الأيام.

٨٠٪على الأقل من برامج التليفزيون المصرى ضيوفها ممثلون ومطربون.. وأجمل صفحات الصحف والمجلات لهم وعنهم وبهم،

ولهم الصدارة، ويشطب بسهولة ودون أدنى إحساس بالذنب خبر مهم عن كاتب كبير أو مفكر أو عالم، أى أن رجال الصحافة الذين نعول عليهم كثيرا هم أول من يشارك فى المأساة.

الخوف كل الخوف... ألا يشعر البعض بأننا فى مأساة حقيقية.. والأعجب إننا نتأخر فى مجال الدراما والسينما ولا نتقدم برغم كل هذا الدعم والزخم،وبرغم الأموال الطائلة التى تتنافس الصحف فى ذكرها.. أجورا لربات الفنون وأربابها.. خرافة نعيشها ووزراء الإعلام أول المسئولين عنها.

خاتمة

الأمل ليس منقطعا تماما فى أن تأخذ مصر المعاصرة بأسباب التقدم التى ترتبط اساسا - فى زعمى - بالعوامل المعنوية ولا تنهض فقط على الامكانات المادية، لأن الأصل فى الكائن الحى هو الروح وليس الجسد، وروح المجتمع ثقافة بنيه وقيمه وحريته الخلاقة والتطلعات الإيجابية لمستقبل متماسك وطموح وقابل للبناء على قواعده لمئات السنين، كما هو الحال فى الدول الأوروبية وأمريكا واليابان وغيرها وإذا كانت المعطيات الحالية تعمل بكفاءة ضد النهضة وذلك بسبب غياب الفكر الاستراتيجى المؤسس للدولة الحديثة والخلل الفادح فى منظومة التعليم مع حزمة من الكوابح والعقبات، يزيد من عمق تأثيرها السلبى، هذا النسق من الحرية الجانحة التى ترسخ للاستهلاكية والابتزاز وتجاوز الحدود خاصة مع غيبة آليات الحساب الرادع وعدم تفعيل دور القوانين لصالح العدالة وسلامة المجتمع.

أقـول: إن الأمل ليس منقطعـا تمامـا رغم الكم الهـائل من المعوقات إذا أمكن أن تستشعر القيادة السياسية وكل مسئول على كـافـة الأصـعـدة خطورة مـانشـيـر إليه، وفى مـقـدمـة مـا يتعين درسـه هو نقل العاصمة أو الحكومة المركزية التى تمثل دون أدنى شك عـقـبة كـؤودا فـى مـسـيـرة التنمـية فـضـلا عن استنزافها الكثير من الطاقات وإهدارها الكثيرمن الأموال، ولأنهـا تقبض بصـورة خـانقـة على كل الخـيـوط وتؤثر سلبـيـا على طبـيـعـة التـوزيع الجـغـرافى والديمـوجـرافى والخـدمى والتنموى لكل فئات الشعب.

إن تحـسـين التـعليم لا يبـدأ أو لا يتـحقق بإنشـاء المدارس ورفع مكافآت المدرسين أو طبع كتب جميلة أو تعليم الطلاب الكومبيوتر، ولكنه يكمن فى فكر الإدارة والمدرسين وفلسفة التـعليم ذاتهـا وأسـاليب التـعـامل مع الأجـيـال الجـديدة وفى كـيفـيـة خلق مناخ علمى وتعليمـى وتربوى وإنسـانى وجمـالى جاذب.. علينا ألا نبعث بأولادنـا إلى المدارس وندفعهم إليهـا، ولكن الصـحـيح أن المدرسة بكل مـفـرداتها عليهـا أن تجـتـذب التلاميذ حتى ليتمنوا الذهاب إليها أيام العطلات..

إن إطلاق يد رجـال الاعـمـال للاسـتـيـلاء على كل شىء واستثمـار كل مقدرات الامة لانتـاج مـزيد من الأمـوال يكدس بحساباتهم داخل مصـر وخارجهـا، يعتبـر إهدارا لمال الدولة، لأنه تبديد لامكانات يجب أن تستثمر على نحو مخطط وبناء لصـالح الجـمـاهيـر وليس فـقط لصـالح مـالك الأمـوال. وإن الفكر السياسـى والاقتصادى الحالى الذى يراهن علـى رجال المال رهان خاسـر.. خاسـر.. لأنه لا ينطلق من منظومة علمية وأخلاقية وقيمية وإنسانية.

قد يبدو هذا تصورا غريبا لرؤى التطوير، ولكنه فى الواقع جزء أصيل من بنية الفكر الاستراتيجى للأمة التى تفتقده البلاد خاصة فى ربع القرن الاخير، ومالم يجتمع علماء الامة ومثقفوها لوضع ملامح لفكر الدولة الذى ينطلق على أساسه كل فعل وكل مشروع وكل تحرك، فإننا سنظل على الدرب نسير بكل إخلاص نحو النهايات المنحرفة عن سياق الوجود الحى والفاعل، تمهيدا للسقوط فى مستنقعات النسيان، لنفقد حتى ميراثنا الرائع من الحضارة مع ما أنجزناه مؤخرا من أبنية ضخمة تبلغ حدا مشبوها من الهشاشة.

فى هذا الكتاب حاولت أن أقدم صورة لما يجرى،ربما لم يتنبه إليها كبير أو صغير، وحاولت أيضا أن أضع بين أيدى الجميع رجاءً حارا أن يعيدوا النظر فى أحوال مصر الحاضرة.. مؤكدا من جديد أن التقدم لا يتحقق بالمال والثروات فقط، ولكن بالفكر والثقافة والعلم والقيم والحرية الخلاقة والبناء على الحقائق فقط. ولابد من العمل بكل الإخلاص والقصدية على تكريس ثقافة الاتقان والتعاون والصدق والجدية.. ثقافة الكرامة وثقافة النقد والاختلاف واحترام دائم للآخر مهما كان موقفه.. إننا من أجل الاستهلاك المادى القائم على الأجهزة الحديثة أطحنا بكل أصيل ونبيل، وسوف تبلى الأجهزة والمبانى الفاخرة وتبقى الوحوش التى تربت فيها.

إذا كانت القضية الأولى، والأوْلى بالرعاية الكاملة والدائمة هى.. الانسان، فإن الجماهير عليها أن تطل فى مراياها وتتأمل منظومة سلوكياتها وعلاقاتها وثقافتها ومدى

قدرتها على البناء بإخلاص.

وهكذا نرى أن المستقبل بل والحاضر يرتبطان أو يتقدمان نحو الأفضل بجناحين هما الانسان المكرم، والقيم.

وهمـا مـعـا يتـبلوران فى الانسـان المثـقف.. إنه الهـدف الحقيقى الذى يتعين علينا بناؤه ورعايته وفتح الآفاق أمامه، ومنوط به المشـاركة فى هذا المشـروع بكل حـمـاس وجـدية.. وعلى الله قصد السبيل.

فؤاد قنديل

صدر للمؤلف

أولاً : الروايات :

١) السقف، ١٩٨٤، هيئة الكتاب.
٢) الناب الأزرق، ١٩٧٩، المؤلف.
٣) أشجان، ١٩٨٠، العربية للنشر.
٤) عشق الأخرس، ١٩٨٦، أخبار اليوم.
٥) شفيقة وسرها الباتع، ١٩٨٦، دار الغد العربى.
٦) موسم العنف الجميل، ١٩٨٧، هيئة الكتاب.
٧) عصر واوا، ١٩٩٣، دار الهلال.
٨) بذور الغواية، ١٩٩٤، هيئة الكتاب.
٩) روح محبات، ١٩٩٧، المركز المصرى العربى.
١٠) حكمة العائلة المجنونة، ٢٠٠٠، دار الهلال.
١١) الحمامة البرية، ٢٠٠٢، مركز الحضارة العربية.
١٢) رتق الشراع، ٢٠٠٣، هيئة قصور الثقافة.
١٣) قبلة الحياة، ٢٠٠٤، هيئة الكتاب.
١٤) أبقى الباب مفتوحًا، ٢٠٠٥، دار الهلال.
١٥) كسبان حتة، ٢٠٠٦، الدار المصرية اللبنانية.

ثانيا: المجموعات القصصية:

١) عقدة النساء، ١٩٧٨، المؤلف.
٢) كلام الليل، ١٩٧٩، المؤلف.
٣) العجز، ١٩٨٣، دار الهلال.
٤) عسل الشمس، ١٩٩٠، هيئة الكتاب.

٥) شدو البلابل والكبرياء، ١٩٩٥ مختارات فصول، هيئة الكتاب.
٦) الغندورة، ١٩٩٦، هيئة قصور الثقافة، أصوات برية.
٧) زهرة البستان، ١٩٩٩، هيئة قصور الثقافة، أصوات أدبية.
٨) قناديل، ٢٠٠٣، كتاب الجمهورية.
٩) كلب بنى غامق، مجموعة قصص عالمية مترجمة ٢٠٠٦، هيئة قصور الثقافة.

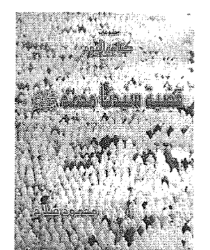
ثالثا: الدراســـــات:

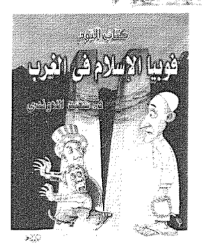
١) كيف تختـــار زوجتــك؟، ١٩٨٦، دار الغد العربى.
٢) محمد مندور شيخ النقاد، ١٩٨٧، دار الغد العربى.
٣) نجيب محفوظ كاتب العربية الأول، ١٩٨٨، هيئة قصور الثقافة.
٤) إحسان عبدالقدوس عاشق الحرية ،١٩٩١، هيئة قصور الثقافة.
٥) أدب الرحلة فى التراث العـــربى، ١٩٩٥، هيئة قصور الثقافة.
٦) رؤية تمهيدية لرعاية المواهــب، ١٩٩٩، هيئة قصور الثقافة.
٧) صناعة التقدم فى مصر ،٢٠٠٠، هيئة الكتاب.
٨) فن كتابة القصة، ٢٠٠٣، هيئة قصور الثقافة.

محتويات الكتاب


صدر من كتاب اليوم
كتاب اليوم
نجيب محفوظ والإخوان المسلمون
كتاب اليوم
ملكة تبحث عن عريس
رجاء النقاش
كتاب اليوم
الحب.. والضحك.. والمناعة
عباس محمود العقاد
عبقرية المسيح
يناير 2006
كتاب اليوم
كتاب الحب
يسرى الفخرانى
I Love You
كتاب اليوم
كلمات للضحك و الحرية
على سالم

صدر من كتاب اليوم



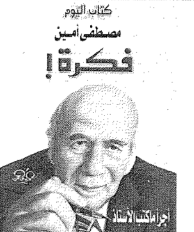












إذا وجدت أى مشكلة فى الحصول على



إذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات

فلا تتردد فى الاتصال بنا علـى أرقام :

٥٧٨٤٤٤٤ ـ ٥٨٠٦٢٣٥

أو على :

Nawal@akhbarelyom.org.

بطاقة فهرسه | فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

قنديل، فؤاد.
ثقافة المصريين/ فؤاد قنديل
ط١ - القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٦.
١٣٦ ص، ٢٠ سم.. (كتاب اليوم).
تدمك ٦ ١٢٦٧ ٧٠٨ ٩٧٧
أ - الثقافة العربية - مصر
أ - العنوان

٣٠١,٢٠٩٦٢

رقم الايداع ١٦٩١٨ / ٢٠٠٦

I.S.B.N.977-08-1267-6

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

كوبون اشتراك

الاســـــــم: ....

العنـــــــوان: ....

رقم التليفــون: ....

مدة الاشتراك: ....

السداد/ نقدا شيك مصرفى

برجاء قبول اشتراكى فى كتاب اليوم.. ومرفق طيه شيك مصرفى لأمر اشتراكات أخبار اليوم على ان يبدأ الاشتراك اعتبارا من / / ٢٠٠

بعض المكتبات التى يباع بها 

اسم المكتبة	العنوان	التليفون
مكتبة المصرى الدولية	أسفل كوبرى مسطرد	-
مكتبة تبارك	نهاية كوبرى المظلات	-
مكتبة محمد توفيق	ميدان النافورة المقطم	٦٦٧٤٢٤٣
مكتبة الحلمية	ش سكة راتب قسم الوايلى	-
مكتبة بكير	ميدان النصر/ المعادى	-
مكتبة الهادى	بجوار البحث الجنائى	٥١٦١٦٥٨
مكتبة الأمل	بجوار البحث الجنائى	٥١٩١٩٨٩
مكتبة آية الله	أمام أكاديمية المعادى	٧٠٢٥٢٦٨
مكتبة المطار «١»	مطار القاهرة موقف أتوبيس المطار	-
مكتبة المطار «٢»	مطار القاهرة صالة «١»	-
مكتبة رانو سنتر	عمارات العبور أمام بانوراما ٦ أكتوبر	٤٠٣٠٢٤٥
مكتبة نادى مدينة نصر	أمام جامعة الأزهر	٤٠٤٠١٧٦
مكتبة سلوى	أمام معهد الخدمة الاجتماعية خلف مستشفى حسبو	-
مكتبة الدار العربية	شارع الطيران	٢٦٣٩٨٥١
مكتبة الفا ماركت	ش صلاح سالم بجوار كوبرى الفنجرى	٤٠٥٠٣٧٠ / ٥
مكتبة مصطفى سيد بركة	ميدان الحلمية تقاطع سليم الأول	-
مكتبة كمبردج	ش سليم الأول	٦٣٢٠٦٤٦

بعض المكتبات التى يباع بها 

اسم المكتبة	العنوان	التليفون
مكتبة عزة	ش أحمد عصمت	-
مكتبة راغب	خلف التوحيد والنور مكرم عبيد	٢٧٤٩٢٦٥
مكتبة علاء ماركت	الحى الثامن مدينة نصر	٢٧٢٤١٥٣
مكتبة الحسينى	أمام معهد الألسن	٦٧٠٢٩٠٩
مكتبة دار الهدف	مساكن السعودية خلف مبنى المخابرات السواح	-
مكتبة دار الأفق	جنينة مول/ رابعة العدوية	٢٧٢٥٣٣٥
مكتبة سبينس	سيتى ستارز مدينة نصر	-
مكتبة الحسن «السلام»	مدينة قباء	-
مكتبة أشرف	فيصل الطوابق	٣٨٧٢٩١٧
مكتبة نور	فيصل الطوابق	٣٨٧٨٢٢٣
مكتبة الرفاعى	فيصل الطوابق	٣٨٧٩٢٣٣
مكتبة الفجالة	فيصل الطوابق	٣٨٧٩٧٧٦
حسن منصور	فيصل الطوابق	٣٨٦١٩٢٦
ليدرز	ميدان فيينى. مستشفى مصر الدولى	٣٣٦٨٥١٣
مكتبة ايزيس	ش هارون الدقى	٧٤٨٣٢٨٠
مكتبة فوليوم	ش الأحرار الدقى	٣٣٨٠١٦٨
الجوهرى	الحى السابع ٦ أكتوبر	٨٣٥٦٧٢٦
فوديكو	٤٨ ش فريد أبوحديد. الحى السابع	٤٠٥٠٩٠٩
سالى	١٦ ش حسنين هيكل متفرع من عباس العقاد	٢٧٢٥٣١٢

المعهد العربى الأفريقى

للحاسب الآلى والدراسات اللاسلكية والسياحة والفنادق

بالقاهرة والزقازيق

يقبل الحاصلين على

لثانوية وجميع الدبلومات الفنية

ون التقيد بسنة التخرج

بحد أدنى ٥٠٪



شعبة الحاسب الآلى

يحصل الخريج على

دبلوم تدريبى فوق المتوسط

* التدريب بأحدث المعامل وأجهزة IBM
* الدراسة والإمتحانات تحت إشراف المعهد القومى للإتصالات

شعبة ضباط اللاسلكى

* شهادة معتمدة دولياً للعمل كضابط لاسلكى بالبواخر والموانئ والمطارات وشركات البترول
* الدراسة بأحدث الأجهزة ومعامل GMDSS

شعبة السياحة

* شهادة معتمدة من وزارة التربية والتعليم والخارجية المصرية
* تدريب عملى بالفنادق الكبرى والقرى السياحية
* ويتاح لخريجينا العمل بمرتبات مجزية

* المعهد يؤجل التجنيد لشعبة اللاسلكى

- إشتراك مواصلات
- توفير الإقامة للمغتربين
- واعفاء من الرسوم لغير القادرين

الدراسة مدتها عامان لجميع الأقسام المصروفات تسدد على أقساط

- العباسية ٨٦ ش العباسية ٤٨٤٧٥٢٥ / ٦٨٥٨٥٨٤
- القاهرة وسط البلد ١١ عبد الخالق ثروت ٥٧٩٣٧٤٠ / ٥٧٤٥٦٣٥
- كوبرى القبة ٩ ش عبد المجيد سليم ت ٦٨٤٩٤٥٩ / ٤٨٣٠٧٨٢
- الزقازيق ٤ ش مسلم زيدان أرض الحناوى بجوار مكتب التنسيق ٢٢٨٥٥٣٢ / ٢٢٩٦٥١٧ / ٠٥٥



الثمن 6 جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم